هذه سبيلي . . .

لا دِينَ لِمَنْ لاَ خُلُقَ له

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار لا تعني بالضرورة تبنّي الأفكار الواردة فيها ؛ وهي تُعبِّر عن آراء واجتهادات أصحابها .

الطبعة الأولى
١٤٣٠ هـ = ٢٠٠٩م

العنوان : هذه سبيلي
لا دين لمن لا خلق له
(أخلاق دمشق)
تأليف : الدكتور مازن المبارك
عدد الصفحات : ١٠١ صفحة
قياس الصفحة : ١٢ × ٢٠سم
عدد النسخ : ١٠٠٠ نسخة
التنضيد والإخراج : زياد ديب السروجي
I S B N: 978 – 9933 – 406 – 03 – 5

حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَة
يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من:

دار البشائر
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق ـ شارع ٢٩ أيار ـ جادة كرجية حداد
هاتـف : ٢٣١٦٦٦٨ ـ ٢٣١٦٦٦٩
ص. ب ٤٩٢٦ سورية ـ فاكس ٢٣١٦١٩٦
الموقع : www.daralbashaer.com
البريد الإلكتروني: info@daralbashaer.com

مكتبة مجمع اللغة العربية
التاريخ:
الرقم: ٣٣٥٤٣

هذه سبيلي

(٢)

مكتبة مجمع اللغة العربية
التاريخ: ٢٧/١٠/٢٠٠٦
الرقم: ٢٤٠٠١

لا دِينَ لِمَنْ لاَ خُلُقَ له

« أخلاق دمشق »

د . مازن المبارك

دار البشائر
دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين ، القائل في وصف أفضل خَلقه ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[1] .

وصلى الله على سيدنا محمد صاحب الخلق العظيم القائل : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلُقاً »[2] .

والقائل :

« أنا زعيمٌ[3] ببيتٍ في رَبَض[4] الجنة لمن ترك المِراء[5] وإن كان محقّاً . وببيتٍ في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً . وببيتٍ في أعلى الجنّة

---

(١) سورة القلم : ٤ .

(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح .

(٣) الزعيم : الكفيل والضامن .

(٤) ربض المدينة : طرفها ، ناحيتها .

(٥) المراء : الجدال .

لمن حسُنَ خُلُقه »[1] .

وبعد ، فهذه صفحات في الحديث عن الأخلاق ، وحكايات دمشقية تحكي كيف كانت الحياة في هذه المدينة العزيزة الخالدة الصامدة . وقد كانت نواة هذه الصفحات محاضرة عنوانها « أخلاق دمشق » ألقيتها في ٢٨ جمادى الآخرة ١٤٢٩هـ ٢/٧/٢٠٠٨م في المركز الثقافي بكفرسوسة بدعوة من جمعية التوعية الاجتماعية ، ثم رأيت أن تكون هي الكتاب الثاني من سلسلة « هذه سبيلي » وهي سبيل لن تخرج عن الحديث في العقيدة والأخلاق واللغة وكل ما تتجسّد فيه هويّة الأمة ومقوّمات حضارتها .

---

(١) رواه أبو داود بإسناد صحيح .

كلمة لا بدّ منها

تتردّد كلمات (التقدّم) و(النهضة) و(الرقيّ) كثيراً على ألسن دعاة الإصلاح وفي كتابات الكتّاب والمفكرين وأصحاب المشروعات الإصلاحية والنهضوية ، يرغبون فيها ويُرغِّبون ، ويحثّون عليها ، ويجعلونها الغاية التي يسعَون إليها ويسوقون شعوبهم نحوها ، إنها عندهم الهدف من وراء كل إصلاح . ولقد حاولت أن أجد تعريفاً لها فيما قرأت فلم أوفَّق في الوصول إلى معنى واحد لها يتفقون عليه ، مع أن شرح معناها أمر واجب لبناء البحث أو المشروع ، ولعل إغفالهم تعريفها يعود إلى أنها أصبحت من المعاني البديهية لكثرة تداول ألفاظها وشيوعها ، ولولا أن الكتّاب يذكرون الأسباب التي يرونها للتقدّم أو النهضة أو الرقي لما أدركنا حقيقة ما يريدون بها .

ولقد رأيت الكثيرين ممن يكتبون واصفين واقعنا العربي داعين إلى تغييره ساعين إلى تقدّمه ونهضته لا ينظرون إلى التقدّم والنهضة إلاّ بمقاييس الغرب . ونحن لا نشك في أن العلم هو الذي كان وراء نهضة الأمم الغربية ، وهو الذي أنتج صناعة راقية في كل ميدان ، وزراعة متفوّقة ، وتقنيات بلغت عنان السماء ، ولا نشك أن ما نهض به الغرب هو ما نحتاج إليه لنسير في طريق النهضة والتقدّم ، على أن نذكر دائماً أن ذلك كله غير كافٍ وحده ، وأن التقدّم العلمي لا يكفي لتقوم الحياة الإنسانية عليه ، إنه بالغاً ما بلغ من التقدّم لن يكون سوى ساقٍ واحدة من ساقَي الإنسانية اللتين هما العلم والأخلاق . . .

لقد كشفت لنا الحروب في هذا العصر بدءاً من هيروشيما وناغازاكي وانتهاء بغزّة أن أرقى الأمم في المدنية والعلم أحطّها في القيم الإنسانية وأفقرها في الأخلاق . ورأينا مئات الأمثلة والشواهد على أن العلم ـ أيّ علم ـ إذا لم تحرسه الأخلاق انحرف واستُغلّ في الشرّ ، وأن القوّة إذا لم تحكمها الأخلاق انطلقت حيواناً شرساً يدمّر كل شيء ويقضي على كل

فضيلة ويقتل كل حياة .

إن من أغراض هذا الكتاب أن ينبّه على عدم الانخداع بتلك الكلمات التي هي التقدم والرقيّ والنهضة يردّدها أصحاب الدعوات التحررية والإصلاحية من شرقيين وغربيين ؛ لأن لكل منهم فيها رأياً . . ولأن كثيرين منهم لا ينظرون من الحياة إلا إلى جانبها المادّي . . ذلك مبلغهم من العلم . ولعل ذلك يبدو واضحاً حين ننظر في الحياة الاجتماعية ونرى ما وصل إليه الأمر في اختلاف وجهات النظر بين الكتّاب والمنظّرين من تقدّميين ومحافظين ! لقد كتب واحد من أنصار التحرّر بمناسبة مؤتمر المرأة الذي عقد في الصين قائلاً : إن الإنسان رجلاً كان أو امرأة حرّ في جسده ، ومن حقّه أن يتصرّف به كيف يشاء ! ونحن لا تعنينا هنا دعوته بقدر ما يعنينا مفهوم التحرّر عنده ، لأن الكثيرين ممّن يدعون إلى التحرّر لا يذهبون به إلى ما ذهب إليه صاحب تحرير الجسد ! بل إن كثيرين منهم عدّوا ذلك خروجاً عن نطاق الإنسانية الفاضلة التي تتعالى على شهواتها وتصعّدها ، وعدّوا ذلك منه هبوطاً

بالإنسانية وتفلّتاً لا يعقله عقل ويلجمه ضابط .

أليس من الواجب أن يكون لمعاني التقدّم والنهضة والرقيّ ومرادفاتها معيار نعرفها به ، أو نعرف أبعادها ومداها ؟! إن كثرة الانحراف وسوء الغايات واستعلاء الشرّ في العالم يجعلنا في حاجة إلى أن ننظر إلى تلك الكلمات من خلال منظور إسلامي نحكّمه فيها ؛ لأن الإسلام قَرَن العلم بالأخلاق ، فحين دعا في القرآن إلى العلم بقوله « اقرأ » جعله قراءة منضبطة « باسم ربك الأعلى » . وبذلك يحفظ للتقدّم وللرقيّ وللنهضة توازنها ؛ فيكون علماً لا يقف عند حدّ ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾(١) ، ويكون معه إيمان يصونه ويحول دون انحرافه ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾(٢) . وهو توازن يحفظ على الحياة الإنسانية قوّتها بالعلم ونبلها بالإيمان ، إن لكل إنسان عقلاً وشهوة ، فإذا غلبت شهوته عقله انحطّ عن إنسانيته ، وإذا سيطر عقله على شهوته كان إنساناً عاقلاً ، وإن من أغراض الدِّين ووظائفه أن يحفظ

---

(١) سورة طه : ١١٤ .

(٢) سورة المجادلة : ١١ .

لكل من العقل والشهوة مكانه ومكانته ، وأن يجعل عقل الإنسان حاكماً للغريزة مسيطراً على الشهوة .
وإن كل دعوة إلى التقدّم إلى العلم ومنتجاته أو إلى القوّة الماديّة وما يؤدي إليها إذا لم تكن منضبطة بالوازع الخُلقي تبقى دعوة ناقصة ، وإن على الموجّهين والمخطّطين أن يجعلوا للجانب الأخلاقي نصيباً في تخطيطهم .

لقد قرأت بيانات كثيرة وسمعت مسؤولين في بلدان مختلفة يعدّدون ما قامت به حكوماتهم فلم أجد في كل ما قرأت أو سمعت كلمة واحدة تتصل بالتربية الخُلُقيّة لأبناء الأمة !

قرأت من الإنجازات زيادة عدد المدارس عند من جعلوا المدرسة مدرستين ، وجعلوا الدوام المدرسي دوامين ! فكانوا كمن يفرح في مضاعفة ثروته بتقسيم ليراته أنصاف ليرات !

وقرأت من الإنجازات زيادة أعداد الطلاب ، وغير خاف أن هذا أمر تابع لزيادة عدد السكّان ! ثم رأيت من يدعو إلى تقليل عدد السكان بحجّة أن

المستقبل الأفضل للأسرة الأصغر ، ومعنى ذلك أنه سيكون من إنجازات هؤلاء الداعين تقليل عدد الطلاّب !!

ورأيت أموراً كثيرة يعدّدونها على أنها أسباب للتقدّم والرقيّ فرُحت أتساءل هب أن ذلك يؤدي بنا إلى التقدّم ، وهب أننا تقدّمنا في كل ذلك وتأخّرنا في إنسانيّتنا فجمد شعورنا نحو الإنسان والإنسانية ، وتأخرنا في أخلاقنا ؛ فسادت النزعات الفردية والأنانية والعدوانية ، وضعف إيماننا بالقيم النبيلة ؛ فغلب على علاقتنا الاجتماعية الكذب والغش والخداع . . . أنكون سائرين في طريق التقدّم والترقّي ؟!

إذا كنا نفهم التقدّم فهماً خاطئاً أو ناقصاً ، وإذا كان التقدّم هو الغاية التي يسعى إليها الحكّام السياسيون والمخطّطون التنمويون والاقتصاديون والمسؤولون التربويون فمعنى ذلك أننا نسعى وراء هدف ناقص ، وأننا نسعى بجهد ضائع وننظر بعين واحدة !

أليس من حقنا أن نسأل الذين يقولون إنهم يحاربون الفساد أو يريدون أن يحاربوه ، والذين يرون في الفساد خطراً على الاقتصاد القومي ، أليس الفساد المقصود هو فساد الأخلاق الذي يقوم أصحابه بالسرقة والرشوة والتهريب والغش ؟ أليست النتيجة واضحة في ضرورة إحكام الصلة بين الأخلاق والحياة أو أنظمة الحكم السياسية والاقتصادية والتعليمية والتربوية ؟

الأخلاق هي قمة الهرم في حياتنا كلها ، ولن يثمر شيء منها ثمرة طيّبة ما لم يكن في رعاية الأخلاق وتحت ظلّها ؛ فلن يصلح حكم لا تدعمه الأخلاق ، ولن يزدهر اقتصاد لا تحكمه الأخلاق .

إن الحكم يمكن أن يكون ظالماً ، ويمكن أن يكون عادلاً .

وإن الاقتصاد يمكن أن يكون لصالح الناس كل الناس ، ويمكن أن يكون استغلال طبقة لطبقة أو دولة لدولة .

وإن العلم يمكن أن يكون لخير الإنسانية

وازدهارها ورفاهيتها ، ويمكن أن يكون لخرابها وتدميرها .

وقد كتب الكثيرون عن الغزو الثقافي ، وحقّ لهم ، ولكن الأهم عندي هو الغزو الأخلاقي الذي جعل غاية ما يتمنّاه الفتيان والفتيات أن يكونوا صورة عن الغربيّين والغربيّات في طراز الحياة مَلْبساً ومطعماً وسلوكاً ! إنه الغزو الذي لا يحتاج إلى جهد من الغازي ، بل يكفي فيه أن يطلعك على حياته وسلوكه ولباسه وطعامه وقيمه من خلال ما يبهرك من قصص وكتب ومسلسلات ، مستعيناً عليها بتقنياته الحديثة في الألوان والأضواء والإخراج ، تاركاً للدعاية أن تضخم في نفوس الشبان الوهم بأن المظهر الغربي الذي يقلّدونه هو رمز أو مظهر من مظاهر التقدّم حتى لو كان بإطالة الشعر كالتيوس ، وبتقصير الثياب كالدُّمى ، وبحكّها أو قصّها أو فتح نوافذ منها يطلّ منها لحم أجسادهم !!

أليس أولئك المتحضرون كذلك ؟ أليس لو دخلوا جحر ضبّ لدخلوه وراءهم ؟

إن غرض الغزو الأخلاقي سلخ الجيل من القيم التي تؤمن بها مجتمعاتنا العربية والإسلامية، وتصويرها على أنها تخلّف ورجعيّة، وإغراق الناشئة بقيم الحياة الغربية وطراز عيشها حتى تألفه، وهم إنما يصنعون ذلك بتخطيط محكم وذكيّ يقابله عندنا إهمال لأبنائنا وإلقاؤهم في أحضان أفلامهم ومسلسلاتهم . . إنهم يستولون على أطفالنا بأفلام الكرتون، وتفرح عندنا الأمهات والآباء بانشغال أولادهم عنهم وركونهم إلى مشاهدة الأفلام ومتابعة المسلسلات حتى رأيت من الكبار من يحفظ أسماءها وتواريخ بثِّها !! وهم يستعينون على شبابنا بكثير من البرامج السياحية التي يضعونها لأفواجنا الذاهبة إليهم ولأفواجهم الآتية إلينا، وفي اللقاءات الشبابيّة وغير الشبابيّة التي تتمّ تحت أسماء كثيرة وفي مناسبات كثيرة كالمعسكرات والحوارات والصداقة والتعارف والتقريب بين الشعوب وغير ذلك مما يزيّنون به حياتهم وسلوكهم في عيون شبابنا لحثّهم على التقليد والتبعيّة . . مما رأيناه في معسكرات أقيمت في بعض البلاد العربية منذ أربعين سنة . .

وما تزال تقام .

ولقد كان هذا دأبهم منذ سنين كثيرة وسلكوا إليه كل الوسائل والسبل ، لقد حبكوا نسيجاً من المكر محكم الحلقات فجعلوا مدارسهم في بلادنا تخدم أهدافهم وتعلّم أبناءنا طراز حياتهم ، بل جعلوا بعض مناهجنا في مدارسنا العربية في بعض بلاد العرب مسايرة لأغراضهم فخلت كثير من كتب الأدب من النصوص الأدبية الهادفة والتي تمثل الأمة في سلوكها وفي قيمها وفي مضمونها ، واستبدلوا بها نصوصاً لا تعلّم لغة ولا تحيي قيمة ! وما زال التعديل مستمرّاً يطلّ برأسه بين الحين والحين . . ومن يطّلع على تعديل مناهج اللغة العربية ومناهج التاريخ العربي في بعض البلاد العربية يجد العجب العجاب .

ولست أكتم أن هذا الذي أقوله الآن قلته منذ أكثر من ربع قرن وكتبته ونشرته وأن الأمر اليوم لم يعد كما كان ولا كما قلت ؛ لقد كنا نتحدث عن غزو ثقافي نحاول أن ندلّل عليه ونضع اليد على آثاره ، وأما الآن فلم يعد ما يسمّى بالعولمة يقبل بغزو ثقافي

يقوم به ، وإنما أصبح اجتياحاً يمحو كل ثقافة غير ثقافته ، ويهمّش كل لغة غير لغته ، ولا يقيم وزناً لوجودٍ غير وجوده ، يتقوّى على ذلك بهيمنته الاقتصادية وتفوّقه التقني . . . وأصبح له أجراء من كل الشعوب والأمم المستضعفة ، بل حتى من الدول الأوربية المتقدّمة ، يشكلون له فرقاً للدعاية ، ويؤلفون (شللاً) وجماعات ينفخون من خلال كتاباتهم فقاعات لمّاعة عن المثاقفة والتنوير والحداثة والانفتاح ووحدة العالم ! وهم يوزّعون على من ليس منهم من الكتّاب ، وعلى من يعارض أفكارهم واتجاهاهم صفات الجمود والانغلاق والتحجّر والتخلّف .

وسلكوا في الغزو الأخلاقي طريق اللغة ؛ فاختاروا عدداً كبيراً من ألفاظها شوّهوا معناها لئلا يبقى لها أثر فاضل أو مستقيم في نفوس الناس . . فالأصولية صفة ذميمة وخطيرة ! وقد كنا إلى زمن قريب نمدح الرجل بأنه ابن أصل ، وأنه يتبع الأصول ، ومن لا أصل له لا نسب له ولا تاريخ . وهل يعيب الإنسان أن يكون له أصل يأوي إليه نسباً

مكتبة
مجمع اللغة العربية
بدمشق

أو تاريخاً ؟! والجهاد إرهاب ، ويرفضون تعريف الإرهاب لأن أي تعريف واقعيّ له ينطبق عليهم وعلى من يوالونهم ، ولأنهم يمارسونه فكريّاً وعسكريّاً ، وعلى نطاق الأفراد والدول . لقد ألبسوا الكلمات غير مدلولاتها ؛ فطمسوا بذلك حقائق ونشروا أباطيل ، بل طووا قيماً ونشروا أخرى ! فإذا الكذب والخداع سياسة ، والإباحية والتحلّل تحرّر ، والتنازل عن المبدأ تسامح ، والتمسّك بالحقوق تزمّت وتحجّر وتعصّب ، والدفاع عن العقيدة طائفية ، وتزوير حقائق التاريخ توثيق وثقافة ، والنفاق فصاحة وكياسة ، والتمرّد على الأسرة والمجتمع قوّة شخصيّة ، والوقاحة صراحة ، والرذيلة فنّ ، والاحتيال مهارة وذكاء ، والاستغلال مساعدة ومعونة . وجعلوا الناس يطلبون فيما هو حق وواجب غيرَ وجهه ؛ فأصبح العطاء والسخاء للشهرة والظهور ، وأصبحت المساعدات الاقتصادية أو المالية للمنّ والتنافس وأحياناً للاستغلال ! وأصبح العلم للتعالم والتشدّق ، والوعظ لطلب المكانة عند الناس وحبّاً للمدح على ألسن الخلق ،

وأصبح السلاح للقمع والإرهاب بعد أن كان للجهاد ونصرة المستضعفين .

إن الأخلاق مرتكز كل تقدّم أو رقيّ أو نهضة ، وهي لا تستورد وإنما تتكوّن من الدّين والثقافة والتاريخ والأعراف ، وقد كانت للعرب قبل الإسلام أخلاق وقيم مجّدوها والتزموها كالصدق والأمانة والنخوة والنجدة والمروءة والشهامة ، ثم جاء الإسلام فتمّم مكارم الأخلاق وصعّدها لتكون طبيعة في النفس لا رياء اجتماعياً ، ووجّهها لتكون ذات نفع للجماعة ؛

* فلا خير في نفع للفرد يعود بالضرر على غيره .
* ودفع الضرر خير من جلب المنفعة .
* ولا خير في مواطن لا يسلم الناس من لسانه ويده .
* ولا خير في مواطن لا يأمن جاره شرّه .
* ولا خير في مواطن يشبع وجاره جائع .
* ولا خير في مواطن يضمر الشرّ لشريكه في الوطن ولو كان على غير دينه أو مذهبه .

* ولا خير في إنسان لا يفكر إلاّ بنفسه .

* ولا خير في إنسان يؤثر الخير أو النفع لنفسه ولو كان على حساب غيره .

* ولا خير في إنسان يعدل في بيته أو وطنه أو دولته ويظلم من سواهم .

ما أشدّ حاجة العالم اليوم إلى الإسلام الذي بنى حضارة القيم فلم يفرّق في إقامة العدل بين الصديق الذي تحب والعدوّ الذي تكره ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ ﴾(١) .

إن الأخلاق كلٌّ لا يتجزّأ ؛ فالفاضل فاضل في كل زمان وكل مكان ، والساقط السافل المنحط هو كذلك في كل زمان وكل مكان .

من عيوبنا

لقد أصبح الناس يختلفون في أحكامهم على الجميل والقبيح من السلوك ، وعلى الخير والشرّ من الأعمال ، لا يجتمعون على كلمة ولا يتفقون على

---

(١) سورة المائدة : ٨ .

أمر ؛ يختلف الصديقان ، ويختلف الشريكان بل الأخوان والزوجان ، ولكم جرّ هذا الاختلاف إلى جفاء أو فرقة ونزاع . وقد كدت أقول أن يحكّم الناس الشرع فيما اختلفوا فيه، فما قبله الشرع قبلوه، وما أباه نبذوه، أو أن يحكّموا الشائع المعروف بين المسلمين ؛ فما استحسنوه فهو الحسن، وما استقبحوه فهو القبيح ، ولكني رأيت الناس إذا سألت أحدهم عن رأي الشرع فيما لا يحتاج إلى علم وفقه وفقيه أجابك : أنا أرى ، وأنا أعتقد ، وكأنك تسأله عن رأيه ! أو كأن لكل منهم شرعاً خاصاً به أو فهماً للإسلام يلتزمه ! وأما المسلمون فكيف وقد قلّ بينهم من يعود إلى الشرع يحكّمه ، وكثيرون منهم كأكثر من في الأرض ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[1] !!

لم تعد تحكم سلوكَ الناس نظرة واحدة أو متقاربة عرفوها جميعاً فالتزموها ، بل أصبح كل منهم ينظر إلى كل أمر في الحياة بمنظاره ، وما أكثر

---

(١) سورة الأنعام : ١١٦ .

ما تختلف النظرات باختلاف الناظرين واختلاف ما ينظرون من خلاله فتكون لكل منهم نظرة خاصة يمليها عليه ميله أو هواه أو صالحه أو ثقافته ، وضاع الحكم العام الذي يوحّد نظرات الناس وأحكامهم .

لقد سادت في حياتنا الاجتماعية والثقافية والاقتصادية عادات وصفات تؤول كلها إلى ضعف في الخُلُق وتهلهل في القيم وفساد في الذوق . وما زالت تلك الصفات تنمو وتنتشر حتى قلّ منكروها وكثر الذين ألفوها ، ولو أنك جرؤت على نصح أحدهم أو انتقاده لكان الجواب السريع : « إن كل الناس يفعلون ذلك ! » والحق أن الناس يقلّد بعضهم بعضاً ، وكأن كلاًّ منهم إمّعة يسيء إذا أساء الناس ويحسن إذا أحسنوا ، وهيهات هيهات !

لقد قلّ بين الناس اليوم من يحفظ عهداً أو يتقيّد بوعد . وقلّ بين البائعين من يتّقي الله في زبائنه ، فإذا كان بائع مازوت مثلاً أعطاك أقلّ مما اشتريت أو أعطاك المازوت مختلطاً بالماء !

وقلّ بين العمال من يفي لك بوعده أو يتقن عمله

أو يبالي بوقتك أو خسارتك .

وقلّ الذين يقومون بواجبهم قبل أن يحصلوا على رشوة . . .

في المساجد

ودخل فساد الذوق إلى بعض المساجد ، فرأينا القائمين عليها يتنافسون في فرش المسجد بالوسائد والرياش ، ويجلس بعض الناس وكأنه في بيته غير مبالٍ بالناس من حوله ؛ وكثيراً ما يستقبل الجالسين بوجهه ويولّي القبلة ظهره ناسياً قوله تعالىٰ : ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾[1] ، إنه يولّي وجهه شطر القبلة إلاّ في المسجد ! فيدير للناس وجهه يتفرّس في وجوههم ويدير ظهره شطر الكعبة وبيت الله الحرام !

ورأيت في بعض المساجد من يجلس على الكراسي المخصصّة للمرضى والعاجزين عن الركوع والسجود فيحتلّ أماكنهم حتى إذا أقيمت الصلاة

---

(١) سورة البقرة : ١٤٤ .

انتفض مسرعاً يتقدّم الصفوف ليصلي بركوع وسجود لا يمنعه من ذلك مانع ! ورأيت منهم من يحمل كرسيّه ليضعه قرب صاحب له في أحد الصفوف ! أو ليقدمه إلى الصفوف الأولى ، وسررت حين رأيت بعض المساجد ثابتة الكراسي لا تحرّك ولا تنقل .

ورأيت بين المصلّين كثيرين ممن لا يتقنون الصلاة ولا يضبطون حركاتهم في وقوف ولا ركوع ولا سجود ، وتمنّيت أن يشرح بعض الخطباء ذلك ويلفتوا أنظار المصلّين إلى أركان الصلاة وانضباط حركاتها ، ولو مرّة في السنة ، وليكن ذلك في رمضان حين يكثر المصلّون ، فقد كنّا أيام زمان نتعلّم ذلك في مدارسنا ؛ وكان بعض المعلّمين يعلّموننا الوضوء والصلاة نظريّاً وعمليّاً ، كان المعلم يتوضأ ويمثّل حركات الصلاة أمام طلابه ، ثم يطلب إلى بعضنا أن يتوضأ ويصلّي أمام زملائه ليلفت المعلم نظر الطلاب إلى صحة الحركات وما يجب فيها . وأما اليوم فإن معظم الناس يتعلّمون الصلاة بالتقليد .

في عالم الكتب ودور النشر

أما عالم الكتب ودور النشر ، وعالم التأليف والتحقيق وما وصل إليه الأمر من تزوير وسرقة وتحايل وضياع للحقوق واعتداء على حرمة العلم فأمر يحتاج إلى كتاب يفرد له ليعرف القارئ كيف ورث بعض الناشرين كتب المؤلفين فباعوها واشتروا بأثمانها دوراً وسيارات ، وورثة المؤلفين من ثكالى وأيتام لا علم لهم ولا خبر وهم في حاجة وعوز !!

وليرى القارئ كيف باعت بعض المؤسسات ما لا تملك من حقوق ؟ وكيف سمحت بنشر كتب ليست وصية عليها ولا على أصحابها !

وليرى كيف يطبع الكتاب ـ المنشور في قطر آخر ـ لا يغيّر في طبعته الجديدة غير اسم المحقّق !!

ويرى كيف يستل بعضهم موضوعات من كتب تراثية فينشرها برعايته وتحقيقه بحجة أن الناس لا يقبلون على الكتاب الضخم !!

وليرى كيف يجمع بعضهم عدداً من الرسائل الصغيرة لعدد من المؤلفين ويصدرها في كتاب واحد

يحمل اسمه حرصاً على جمعها بيد القارئ !

وليرى من نقل الصفحات ونسي أن يعزو ما نقل إلى صاحبه !

وليرى من يظن أن الكتاب الذي نشره ملكه أو إرث ورثه من أبيه فيعيد طباعته ويغيّر فيه ويبدّل ، ويزيد وينقص ، ليصدر طبعة جديدة لا علم لصاحب الكتاب بها وبما طرأ عليها من فساد !

وليرى في سوق التأليف والتحقيق طبقة جديدة من أدعياء العلم اقتحموا ميدان العلم بجرأة ، وأعدّوا سلاطة اللسان إرهاباً لمن يقف في وجوههم ، ومارسوا مهنة السماسرة والوسطاء عند من يعرفون من ناشرين ، وفرضوا أنفسهم على مؤلف يشاركونه أو محقق يتوسّطون له ، واستطاعوا أن يكون لهم من دخل الكتاب نصيب كنصيب المؤلف أو المحقق !

وليرى من تعاقد مع دار نشر على طباعة كتاب ، وقبض جزءاً من الثمن ، ثم عاد ليستعير نسخة الناشر من العقد ـ وهي بمثابة الإيصال المالي لما قبض ـ

بحجة أن نسخته قد ضاعت . ولم يُعد النسخة لأنه وقّع عقداً آخر بنشر الكتاب مع دار أخرى للنشر وسلّمها الكتاب وغادر البلد !

وليرى كيف سطا محقق على هوامش محقق آخر طبع الكتاب في قطر آخر فأنزلها في مواضعها من كتابه على أنها من جهده وعلمه !

وليرى من قبض من المحققين قسماً من أجر التحقيق وما زال يستجرّ الأجر ، وحين وصل التحقيق إلى نهايته باع الكتاب محققاً إلى دار أخرى وقبض الأجر كاملاً .

كل هذا وقفت عليه وعلى كثير من مثله في بلادنا العربية ، وعرفت الكثير الكثير من أخلاق العلماء في عالم الكتب وفي رحاب الجامعات ، وخرجت من كل ذلك بأن العلم لا خير فيه ولا في صاحبه إن لم يكن متدثّراً بالخُلق الكريم وخارجاً من وعائه . وبأن نشر العلم والتعليم إذا أصبحا تجارة يسعى أصحابها إلى الربح والثراء من ورائهما كانت تجارة آثمة مع أن العمل في العلم بجميع أنواعه ينبغي أن يكتفي فيه

صاحبه بالعيش والاعتدال تاركاً ما وراء ذلك وما بعد ذلك احتساباً وأجراً عند الله . ورأيت أخطر هؤلاء جميعاً على العلم وعلى الأخلاق وعلى الدّين نفسه وعلى المتديّنين الصادقين أولئك الذين يتخذون من الدين ومظاهره شَرَكاً يصطادون به ثقة الناس .

ولقد حدّثت صديقاً بتفصيل مثلٍ واحد مما ذكرته فكان تعليقه : لا شك أن الحاجة أو الفقر هو الذي دفع إلى ذلك ! فقلت له : تقول العرب في أمثالها : تجوع الحرّة ولا تأكل بثدييها . ونقول : يجوع المسلم ولا يأكل بدينه .

وحسبنا وصية رسول الله ﷺ التي لا يحتاج أحد بعدها إلى زيادة وهي قوله لمن سأله أن يعلّمه شيئاً لا يحتاج أن يسأل أحداً عن شيء بعده : « قل آمنت بالله ثم استقم » .

كان في الشام فقراء ، ولكن الفقير كان عفيف النفس عزيزها ، يؤثر الصبر على عضّ الزمان ولا يذلّ نفسه لإنسان . . . وأصبح اليوم إذا سأل ألحف ، وإذا وصف حاجته أسهب وبالغ وحلف .

وكان في دمشق أهل شهامة ونجدة ويسار ، تتلهّف إليهم القلوب ، وتتطلع نحوهم عيون السائلين والمحتاجين فيجيبونهم بأيدٍ تملأ الجيوب وتسدّ الحاجة .

كنا نرى بين المرشدين والواعظين من يذكّرنا بالآخرة وهي بين عينيه ، لسانه معنا وقلبه مع ربّه ، يعظ طالباً رضى الله . . والناس من حوله يتمنون رضاه . . وليس خافياً أن بعضهم اليوم يعظ بلسانه والدنيا ساكنة في قلبه ! والآخرة دبر أذنيه ، يعظ موهماً طلب الحق ورضى الحق ، وهو يسعى إلى رضى الخَلق .

كنا نرى الدعاة أمة واحدة ، وكلمة واحدة ، ودعوة واحدة ، فإذا هم اليوم وكل منهم أمة وحده ، وكلمة وحده ، ودعوة وحده !

كان الواعظ طبيباً للنفس ، يصلح بينها وبين الدّين ، وكأنه كان طبيباً للدّين نفسه ، وكذلك ينبغي أن يكون ، يجمع الناس على الهدى ويكون هو قدوتهم في الطريق إليه ، ثم ظهر على بعضهم حب

الدنيا ، وغلبت على نفوسهم شهوة المنصب وإيثار المال والشهرة ، ولحق هذا الداء بعض أهل العلم الشرعي وغيره . وابتلي به بعض الدعاة والمرشدين فوقعوا صرعى في شباك الدنيا وهي خضرة حلوة ، فأنّى يحرّرون الناس من أسرها وهم أساراها ؟ وأنّى يداوون المرضى وهم مرضى ؟! إذا رأيت العالم ـ أيّ عالم ـ يلاحق الدنيا ليجمعها ويتطلّع إلى المناصب لينالها فاعلم أنه ابن دنيا يطلب العزّ بها ومنها ولها ، أي أنه يطلب العزّ بغير ما يعزّ العلم والعلماء ، وبغير ما يعزّ الله به عباده الصالحين .

لقد كنا نقول ـ أيام زمان ـ : والله لا نبيع زماننا بزمان ! ونحن اليوم نقول : رحم الله ذاك الزمان ، ورحم من بقي من شيوخنا ومثقّفينا ومعلّمينا على العهد والصدق فيما أعطى الله عليه الميثاق .

في دمشق

عرفت مدناً كثيرة ، عشت فيها أزمنة مختلفة طالت إذ كنت فيها مقيماً ، أو قصرت إذ كنت فيها

زائراً . ورأيت الصلة بيني وبينها كالصلة بيني وبين بني البشر ، يشدّني بعضها إليه لا أدري أبجمال بيئتها أم صفاء أهلها أم بسرّ كسرّ الأرواح تتعارف فتأتلف أم تتنافر وتتناكر فتختلف ! .

مدن تزورها فتحبها ، وتحب العودة إليها زائراً مشتاقاً ، ومدن تمضي منسحبة من نفسك أو ذاكرتك كما مضت زيارتك لها ، وأمست صفحة مطوية من تاريخك .

حدثني بعض أصدقائي كيف ربطتهم (الرباط) فاتخذوها دار إقامة .

وحدثني آخرون كيف آنستهم (تونس) فأنسوا بها وأطالوا الإقامة فيها ! .

وحدثتهم كيف قهرتني (القاهرة) في ماضيها القريب فعشت فيها مدة ثم رحت أزورها بين الحين والحين حتى صدّني عنها ازدحامها بالملايين الذين لو وزّعتهم على دولة لملؤوها ! ولو بحثت عن شارع أو زقاق أو حارة تستطيع السير فيها لأعياك البحث . . . وصدّني عنها ضجيج من فيها وما فيها

من سيارات وآليات تملأ كل مكان حتى الحارات الصغيرة والأطراف البعيدة .

كما حدثتهم عن (الدوحة) التي ما زالت ذكراها دوحة في صحراء الذكريات . . . أذكرها فتنبعث في النفس أجمل الذكريات .

أما دمشق فتهوي إليها القلوب ، وتميل نحوها النفوس . . . عرفها البشر من أقدم ما عرفوا من مدن ، وتتابعت عليها أقوام وشعوب ، ما منهم إلا من أحبَّها وأثنىٰ عليها ومدح الإقامة فيها .

وصفها الأدباء وتغنّى بها الشعراء . . وعدّت واحدة من أجمل جنان الدنيا باعتدال جوها وجمال طبيعتها ووفرة مياهها وتنوع ثمارها وفواكهها . . . ما مرّ بها قوم إلا تركوا بها خبراً ، وما قامت فيها حضارة إلا خلفت فيها أثراً ، حتى باتت كنزاً لآثار حضارية من أغنىٰ كنوز الأرض وأخلد كنوز الدنيا .

لو اختار التاريخ من يمثله في تاريخ الحضارة الإنسانية لاختار دمشق ، ولو اختارت الحضارة من يمثلها في تاريخ الإنسانية لاختارت دمشق .

على أن لكل شيء نهاية ، ولكل أجل كتاب ، ولكل أمة عصر ، ولكل حضارة دور . ولقد قامت في دمشق دول ثم دالت ، وازدهرت فيها حضارات
٢ ثم خبت ، ويبقى حبل التاريخ موصولاً وعراقته باقية ، يروي السابق للآحق صفحات من المآثر وصفحات من المفاخر .

ولقد مرّ على دمشق ما مرّ على غيرها ، فقامت فيها دول ، وعاشت فيها شعوب ، وازدهرت فيها حضارات . . . ودارت فيها حروب واشتعلت فيها ثورات ، وهي صامدة تصدّ الغزاة وتردع المعتدين . . . ترحّب بالضيوف وتكرم الوافدين . . . تصنع التاريخ ، وتلقي على العالم دروس العزة والإباء والتضحية والفداء . . .

لقد رأيت دمشق باقية بقاسيونها ومسجدها وأسوارها وأبوابها ، ومعظم أسواقها وحاراتها ولكنها بدأت تتغير فيها العادات الدمشقية ، وينحسر ما كان يسود أخلاق أهلها من نبل وشهامة وحب وتعاون .

لقد كان موضوع الأخلاق في دمشق وما كانت عليه وما آلت إليه موضوعاً يشغلني ، فحين دعتني جمعية التوعية الاجتماعية إلى إلقاء محاضرة اغتنمتها فرصة للحديث عن (أخلاق دمشق) ووضع صورتها الماضية والحاضرة أمام جيل اليوم ، فهو جيل لم يدرك شيئاً من جمال الماضي . . . إنه ابن اليوم بأفكاره وأهله وأخلاقه ، لا يشعر بما نشعر به نحن ، نحن الذين عشنا اليومين الماضي والحاضر ، ونعيش مع جيل اليوم نتحسّر على أخلاق لم يدركها وعادات لم يعرفها ، ونعيش اليوم معه ، ولكننا نعاني وحدنا من دونه .

لقد رأيت واجباً عليّ أن أنشر صفحة دمشقية عرفتها وعشتها ووعيت أسطرها ، فإن لم تكن ذكرىٰ تنفع فلتكن تاريخاً يتلىٰ . وكان مما دفعني إلى الكتابة عن الأخلاق والتذكير بالقيم الفاضلة وإحياء أمثلتها وذكرى أصحابها ما رأيته في السنوات الأخيرة من خلل في معظم ساحات حياتنا الاجتماعية ؛ في البيوت والمدارس والأسواق والشوارع

والمحاكم . . . وقد كان الأمر يهون لو أننا رأينا ما يقابل هذا الخلل المتغلغل بيننا والمنتشر في حياتنا من تخطيط لدفعه أو إلجامه قبل استفحال خطره ! لقد رأيت بوادر لا تبشّر بخير إن لم تنذر بسوء . ولست أشك أن كل قارئ وكل مواطن يعرف من أمثلة الخلل والفساد أضعاف ما أعرف ويدرك أي سرعة يسير بها المجتمع نحو الانسلاخ مما كان يستره من قيم دينية أو خُلقية ، وارتداء ما غزاه من فردية وأنانية واستهتار بالقيم وبالمقوّمات التي لا تكون الأمة أمة إلا بها ، ولا تقوم حضارة إنسانية راقية إلا عليها .

إني أدعو القارئ إلى أن يرافقني لحظات ليرى بعض ما رأيت ، وليوازن بنفسه بين مشهدين أو عصرين ، وليتنبأ بنفسه ما سيكون حالنا عليه إذا استمر السير في الطريق الذي يراد للجيل الجديد أن يتابع السير فيه !

واحد من أحيائنا المعاصرة

إنه حيّ فقير وبيئة مزرية ، أكواخ من لبن

وصفيح ، حرام أن تسمَّى في عرف اللغة بيوتاً أو مساكن ! تعتلي أسطحتها (غابة) من (الدشّات) ، الصدئة ، تحدثك أن تحتها أولاداً وبنات ، شباناً وشابّات يسكنون في تلك الأكواخ تربّيهم أفلام الرعب الأمريكية ومسلسلات النهب والسلب والاغتصاب والتهريب والمخدّرات . . وأنه سيكون لهم مستقبل رائع في عالم الجريمة إذا لم تكن ثمة عقول تلجم الرغبات الجامحة ، ولم يكن ثمة قيم دينيّة نبيلة تكبح جماح الأهواء والشهوات وتهذّب النفوس . إن ذلك النشء سيكون خطراً على مجتمعه وسيكون فقره وقوداً يسعّر رغباته ويزيّن له أهواءه وشهواته . . ونحن نتركه اليوم لنتلقى الويلات من عاقبته ! وما أظن شيئاً يمكن أن يصلحه منذ اليوم إلا المسجد برسالته الإنسانية الفاضلة فلقد بقي الملجأ الوحيد بعد أن رأيت الطلبة في المدارس يتبادلون الصور الساقطة (والكاسيتات والسيديات) والصور على الهواتف النقّالة .

إن سياسة التخطيط لا يصحّ أن تبقى مقصورة على المال والاقتصاد بل لا بد أن تتناول الإرشاد

والتوجيه والأخلاق وتعيد إلى المساجد اعتبارها وترعاها لتجعل حياة الناشئة حياة مستقيمة في ظل قيم نبيلة ومُثل فاضلة توجّه السلوك نحو الخير وتصونه من الانحراف .

من المجتمع الدمشقي

السكنى في دمشق نعمة لا يقدّرها كثير من الناس ، وكأنها من النعم التي لا يعرفها صاحبها إلا إذا سُلبت منه ، وسعيد من يعيش في دمشق ويعرفها حق معرفتها ، وأنا اليوم سعيد إذ أتحدّث عن دمشق وشاكر كل الشكر للذين تفضلوا بدعوتي إلى الحديث عن دمشق . أشكر جمعية التوعية الاجتماعية لهذه الدعوة ، وأشكرها ثانية لجعلها للأخلاق نصيباً من توعيتها الاجتماعية .

إني أحيّي هذه الجمعية الناشطة وعملَها البنّاء ، وأرحّب بالمستمعين الكرام من أحباب دمشق وأصدقاء دمشق وأقول لهم : إن كنتم تسكنون في دمشق فأنا دمشق تسكن فيّ ، وإن كنتم تحبون دمشق فإن دمشق تحبني ، ما سرت في زقاق من أزقتها أو

حارة من حاراتها إلا شعرت أن حجارتها تحدثني تكاد تعانقني ، وأن كل ساباط (سيباط) أمرّ تحته يبتسم لي ، وأن كل باب من أبوابها الخشبية العتيقة يدعوني ، وأن رائحة بيوتها القديمة أيام زمان بياسمينها وليمونها وشمشيرها وكَبّادها هي أنفاسي ، وأن عبيرها هو عطري .

ربما كان العمل في غير دمشق أكثر مردوداً ، وربما كان العيش في غيرها أكثر راحة وأقلّ كدّاً ، ولكن العيش فيها وحدها ـ على كل ما فيها ـ أهنأ وأسعد ، ففيها يستقرّ الحنين وتطمئن النفس وتُروى الروح .

لقد عرفنا البيت العربيّ في دمشق جنّةً لساكنيه ، ففيه (الديار) الواسعة ، تتوسطها بركة الماء التي يحيط بها شمشير وفلّ ، ويظلّلها ياسمين ونارنج وكبّاد . تجلس فيه المرأة تحت السماء فلا تراها غير النجوم ، ثم هجم علينا البناء الغربي والبيوت أو الشقق التي كعلب الكبريت ! ولم يخطر ببال المهندس العربي أو المسلم أن يطبّع علمه الهندسي

بما يحافظ به على التقليد العربي أو على الأدب الإسلامي فترك البيت الجديد مفتوحاً لاستقبال نظرات الجيران ، وعرفنا في وصف البيوت كلمة جديدة فأصبحنا نقول هذا البيت (مجروح) أي يمكن للجار أن يطلع على ما بداخله !! ولم تكن باحة البيت أو ديارها جنة طبيعية فحسب بل كانت جنّةَ أنسٍ بما فيها من حبّ وسعادة وتآلف للأسرة التي تجتمع بكل أعضائها أو أفرادها رجالاً ونساءً كباراً وصغاراً في أحاديث ممتعة ومفيدة ، لم تفرّقهم علب الكبريت أو السردين المسماة بالشقق ، ولم يشدّهم تلفاز أو كمبيوتر أو غيرهما . . . لقد أصبحت الأسرة اليوم مفرّقة في غرف البيت لا تجمع أفرادها جامعة ! ولقد سمعت أن بعض الأولاد يتعشون بالشطائر (السندويش) في غرفهم مع المسلسلات أو الكمبيوتر و(الأنترنيت) الشابكة ولا يشاركون الأسرة عشاءها !!

لقد كانت الجلسة حول البركة صيفاً ، وحول المدفأة أو (المنقل) شتاءً تعطينا من الحبّ والحنان ومن الدروس الاجتماعية ما لا تستطيع مدرسة أن

تعلّمنا أو تلقّننا مثله !

لقد كان الكبار نساءً ورجالاً يعلموننا الأخلاق والآداب الاجتماعية من خلال ما يقصّونه علينا من القصص والحكايات .

أكان لأحدٍ أن يرى واحداً منا نحن الأطفالَ أو الشباب جالساً في حافلة من السيارات الكبيرة أو حافلات الترام وفيها امرأة واقفة أو رجل مسنّ غير جالس ؟

أكان لأحد من الناس أن يسمع شكوى على سائق سيارة أجرة ؟ لقد كان السائقون على درجة عالية من الصدق والأمانة ، لا يأخذ أحدهم أكثر من حقّه ، ولا يستغل غفلة من سائح ، وما زلت أذكر أن سائقاً جئت معه من بيروت ونزلت عند بيتي في المزة يطرق بابي بعد ساعة ليقول لي إنني نسيت معه ربطة خبز اشتريتها في شتورة ، فخجلت منه وقلت له ليتك تركتها عندك هديّة ، وحاولت أن أدفع له ما يعوّضه عن عودته من المرجة إلى المزة فرفض بإباء ، وحين ألححت عليه قال : يا أخي أنت تهينني ! فقلت

معاذ الله ولماذا ؟ قال لأنك تريد أن تدفع لي ثمن أمانتي !! .

وكان في المجتمع الدمشقي تعاون وتكافل يذكرني بقول القائل : (الخالطين فقيرهم بغنيّهم) فلقد كنت أرى في المناسبات الدينيّة كرمضان والعيدين من يقوم مقام الجمعيّات الخيرية ؛ رأيت ذات يوم سيارة أعرف صاحبها تقف في أول حارتنا وينزل سائقها وبيده رسالة ويطرق أحد الأبواب ويسلّم الرسالة وينصرف ، عجبت للأمر وكنت في العاشرة من عمري ، أسرعت إلى والدي وأخبرته بسيارة صاحبه ورسالة سائقه فأفهمني رحمه الله أن صاحب السيارة رجل كريم يضع مبالغ من المال في مغلّفات يوزّعها سائقه بإشرافه على الأسر الفقيرة والمستورة ويشرف هو على التوزيع بنفسه من داخل السيارة ، وهذا دأبه في كل موسم . وعرفت كريماً آخر يطوف قبل العيد بثلاثة أيام ليوزع أكياس الطحين والعجوة (التمر) على كثيرين من الفقراء وأحياناً من الأقارب والأصدقاء ليصنعوا (محلي العيد) إذ لم يكن في دمشق إذ ذاك إلا أربعة محلات تصنع

الحلويات ولم يكن في قدرة كلّ الناس شراؤها فكانوا يصنعونها في البيوت ويستعينون على شيّها وإنضاجها بالأفران .

ولست أشك أنه كان لأمثال هذين المحسنين أمثلةٌ في أحياء دمشق ، وأنه يكاد لا يبقى بيت في رمضان وفي الأعياد من دون لحمة أو حلوٍ أو نقد عينيّ يسدّ الفاقة ويلبّي الحاجة .

وكذلك كان كثيرون من أصحاب المصانع يوزّعون مما تنتج مصانعهم كميّات غيرَ قليلة من قطع الجوخ والقمصان الداخلية والملابس الصوفية والأحذية على الفقراء وعلى المدارس لتتولى توزيعها على المحتاجين من الطلاب والطالبات .

لقد كنا نعيش في المجتمع الدمشقي في نعمة لا نعرف قيمتها من الحبّ والتعاون والتكافل والوئام ؛ ليس بيننا فقير يحقد على غني لأنه كان يتمتع معه ببعض ماله من غير مذلّة ، ولم يكن عندنا عامل يحسد ربّ عمله لأن له في كل موسم ديني أو وطني هديةً من إنتاج مصنعه أو (عيديّة) تقدم له من غير أن

يطلب ، ولم يكن لدى المواطنين شعور بالفوارق المذهبية أو الطائفية أو الدينية ، لقد كنت في المدرسة الابتدائية ثم في الإعدادية ثم في الثانوية وكان من زملائي وأصحابي طلاب من كل المذاهب والطوائف والأديان ما زلنا أو ما زال الأحياء منّا يجتمعون ويتزاورون ويذكرون تلك الأيام أطيب الذكر وأحلاه قائلين : سقى الله أيام زمان ما كان أهناها وأحلاها .

إن الجيل الذي ولد اليوم لا يعرف كيف كان الأمس ولا كيف كانت الحياة فيه . إن المعمرين أو المخضرَمين الذين عاشوا العصرَين هم الذين يفرّقون بين ما كانت أخلاق الناس عليه وما آلت إليه !

لقد أدركنا في دمشق موظفين عرفت أنا عدداً كبيراً منهم في المدارس وفي وزارة المعارف والعدل والمالية والبلديّة ، لم أكن أعرف أحداً منهم معرفة خاصة ولكني كنت أسعد حين أدخل على أحدهم بطلبٍ ما لِما ألقى من حسن استقبال وإشعار بالاهتمام بطلبي وحرص على إرشادي إلى أيسر

الطرق للوصول إلى ما أريد من دون تأخير ولا تعسير . هل يعرف الموظف اليوم أن الوظيفة هي العهد الذي يرتبط به ؟ وأن المواظفة هي المساعدة والمؤازرة والملازمة ؟ وأن الوظيفة خدمة معيّنة يجب أن يرتبط بها ولها وأن يلازمها ؟ وأن الموظف هو الذي توكل إليه خدمة معيّنة دائمة يلازمها في عمل من الأعمال أو مرفق من مرافق الدولة ؟ وإذا قلنا إن الدولة استوظفت فلاناً فمعنى ذلك أنها استوعبت وقته وجهده في وقت قيامه بوظيفته ! فأين هذا اليوم؟ وكم نسبة الذين ينطبق عليهم من الموظفين ؟

هل ينطبق هذا على من يحتجب عن المراجعين حتى ينهي قراءة الجريدة وشرب القهوة ؟ هل ينطبق هذا على الصَّحب أو الزملاء الذين يغلقون باب مكتبهم حتى ينتهوا من حلْقتهم حول صحن الفول ؟

هل ينطبق هذا على من تتركني نحواً من خمس دقائق واقفاً أنتظر انتهاء حديثها على هاتفها الجوّال عن طبخة صديقتها وكيف احترقت ! هل أعطىٰ

هؤلاء جميعاً أوقاتهم لوظائفهم في وقت عمل وُظفوا فيه لخدمة المواطنين ؟!!

وأدركنا في دمشق طبقة من المعلّمين في كل مراحل التعليم كانوا القدوة لنا في الانضباط والتقيّد بمواعيد الدروس ، والقدوة في الحرص على الوقت وعلى العلم فلم يكن أحدهم يتحدث عن نفسه يوم كان ويوم كان . . . ولا عن إبداعاته الأدبية والشعرية ، لقد كانوا آباءً لنا ومربِّين يملؤون جوّ الدرس محبّة وحناناً ويغلِّفون العلم توجيهاً وإرشاداً . وأدركنا من المحامين من كان إذا لم يقتنع بحق موكّله لا يقبل الدفاع عنه ولو بذل له الملايين . . . وإذا كنا اليوم نرى من لا تهمّه من موكّله سوى أجرة أتعابه ، ومن يجعل نفسه مطيّة لاغتصاب عقار أو إسقاط حق أو براءة مجرم ، فإن في كل طبقة وكل مهنة أعلاماً ما زالوا يرفعون رأس مهنتهم ويحفظون العهد الذي قطعوه على أنفسهم مؤمنين أنهم إن دافعوا عن الباطل في الدنيا فلن يجدوا من يدافع عنهم يوم القيامة ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا

بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[1] . وعرفنا في الشام أصحاب أقلام لم يبيعوا أقلامهم ولم يؤجّروها بل سخّروها للحق ولقضايا الوطن . . ما شوّه تاريخاً ولا دافع عن باطل وكأنه كان إذا كتب أو خطب أمام قوله تعالىٰ : ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[2] لقد أدركنا في دمشق من كل الطبقات وكل المهن والحِرَف رجالاً يخافون الله أكثر مما يخافون أصحاب السلطان ، ويحبّون الحق أكثر مما يحبون المناصب والأموال . ولعل من حق الأطباء عليّ أن أذكر أنني أدركت في دمشق طبيبين أما أحدهما فقد خصّص يوماً من أيام الأسبوع لا يستقبل فيه إلاّ الذين يعجزون عن دفع أجور المعاينات . وأما الثاني فقد جعل في مكتبه دُرْجين يضع ثلاثة أرباع أجر المعاينة في أحدهما ويضع الربع الرابع في الآخر ، ولمّا سألته عن سبب ذلك قال أضع ثلاثة الأرباع في درجي ، وأضع الباقي في درج الله لأساعد منه مَن لا

---

(١) سورة الشعراء : ٨٨ ـ ٨٩ .
(٢) سورة ق : ١٨ .

يستطيع أن يشتري الدواء .

أما المواطنون بعيداً عن أصحاب المِهن فقد أدركت منهم رجالاً يُصلحون ذات البين وينهون الخصومات متحمّلين من أموالهم نفقات ذلك كلِّهِ وما تتطلبه الدعوات والولائم وأجور النقل .

وعرفت عدداً من الرجال انتهت مدّة استئجارهم لبيوتهم فسلّموا مفاتيحها لأصحابها لم يقبل أحد منهم أخذ ليرة واحدة من المالك مقابل ما يسمّيه مغتصبو اليوم الفراغ أو الخلوّ ، ولو سألت أحدهم بأيّ حق يتقاضى من المالك أكثر مما دفعه له من بدل الأجرة طوال حياته لقال بحق القانون . وويل لمن يسرق باسم القانون ويظلم باسم القانون ناسياً أنه يعيش اليوم في ظل قانون أرضي وأنه سيحاكم بين يدي ربّه بموجب أحكام قانون إلهي ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾(١) .

---

(١) سورة الزمر : ٤٧ .

وقفة اعتبار

كم أتمنى على الناس أو على بعضهم أن يفعلوا ما فعلته أنا منذ أكثر من أربعين سنة ، لقد مرّت علي أيام خشيت معها أن أهوي في ساعة ضعف نفسي فاخترت ثلاثة أمكنة عزمت على أن أقضي في كل منها ساعة واحدة في الشهر وفعلت ذلك لثلاثة أشهر كانت كافية لتعيدني إلى الفطرة وإلى الاستقامة وإلى ربّي .

أما المكان الأول فكان ساحة مبنى العدلية حيث كان مجمَّع المحاكم ، يقف المرء ساعة فيرى مئات الناس يسيرون لا يكاد يرى أحدهم طريقه ، كلّهم يسرعون داخلين خارجين ، صاعدين نازلين ، يريدون أن ينهش بعضهم لحم بعض ، وأن يأكل بعضهم مال بعض ، ويرى في وسط الحلبة بعض الأساتذة من المحامين الناشئين يسعّرون النار بين هؤلاء وأولئك ، يطمئن كل منهم موكّله ويتكفَّل له بالنصر على خصمه وكسب القضيّة ! إنها وقفة لا تنتهي الساعة فيها إلا وقد احتقرتْ نفسُك الدنيا التي

يلهث الناس وراءها ونفرت عن النزول إلى ساحة صراع لا إنساني بعيدٍ عن الفضل والتسامح وعن الإيمان الصادق بالحق وبالعدل .

وأما المكان الثاني فمستشفى المجتهد أو المواساة ، أما أنا فكنت أقف في باحة المستشفى الوطني ، وكنا نسميه (مستشفى الغرباء) ، هناك ترى سيارات الإسعاف أو سيارات الأجرة تنقل المصابين والمرضى بين الحياة والموت وترى الذي اعتلّت صحتهم أو سالت دماؤهم أو عجزت أعضاؤهم . . وترى ما أنت فيه من صحّة فتتذكّر نعمة الله عليك ، وتتذكّر واجب شكره سبحانه بأن حماك وعافاك ، فتجعل شكرك له من نوع إحسانه إليك ، وبذلك يكون شكر العين ألاّ تنظر إلى محرَّم ، وشكر الأذن ألاّ تسمع الفاحش من القول والهجر من الكلام ومغيبة الناس ، وشكر الرِّجل ألا تقصد بها إلى حرام ، وشكر اليد ألاّ تمدّها إلى ما ليس لك .

إن ما وهبه الله لك من أعضاء البصر والسمع وغيرهما أمانة عندك ، ولا يجوز أن تخون من ائتمنك ؛

أفليس النظر إلى ما حرّمه الله عليك خيانة له ؟ أليس في استماع الأذن إلى ما حرّم من غيبة ونميمة خيانة له ؟ أليس نطق اللسان بغير الحق وغير الصدق خيانة له ؟ أليس مدّك اليد إلى مال غيرك خيانة له ؟ لقد أسأت استعمال ما ائتمنك عليه وجرحت بأعضائك حرمة شرعه ، لذلك سُمّيت أعضاؤك بالجوارح ، وقد قال سبحانه ﴿ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ﴾[1] وذكّر سبحانه بأنه يعلم خيانتك مهما صغرت ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ ﴾[2] .

إن شكر العينين والأذنين أنك إذا سمعت أو رأيت بهما خيراً وعيته وأذعته ، وإذا رأيت أو سمعت بهما شرّاً كتمته وسترته . وإنه لغاية في الحمق والغدر أن تتقوّى بنعم الله على معاصيه . لقد خلقك الله وسوّاك وعدلك وفي أحسن صورة ما شاء ركّبك ، وأنشأك وجعل لك السمع والبصر ومنحك العقل وهداك ، أيجوز لك أن تسخّر ما أعطاك لغير ما أعطاك وتستعمله في غير ما أرشدك إليه وهداك ؟!

---

(١) سورة الأنعام : ٦٠ .
(٢) سورة غافر : ١٩ .

وأما المكان الثالث فكان مقبرة الدحداح ، كنت أقف هناك بين القبور عند ساعة الغروب ، وكان ذلك الوقت أقسى عليّ وأشدّ رهبة ، كنت أنظر حولي وأقول لو نهض أهل هذه القبور بصورهم وهيئاتهم التي كانوا عليها في دنياهم لظننت نفسي في اجتماع من اجتماعاتهم أو حفلة من حفلاتهم ؛ فها هو ذا فلان بك ، وهذا معالي الوزير ، وذاك هو المليونير . . وهذا وهذا . . . رأيتهم في خيالي من خلال قبورهم وكأنهم واقفون أمامي كما كانوا في حياتهم! ألم يكونوا كذلك ؟ ألم يكن كل منهم مالئاً دنياه سطوة وكبْراً وعظمة وانتفاخاً ؟ أين هم اليوم ؟ لقد طوى القدر أرواحهم ، وطوت الأرض أجسادهم ، وطوى الناس ذكراهم ، ونسيهم أقرب الناس إليهم ، وأنا صائر عما قريب إلى ما صاروا إليه ، فمن الحمق والغفلة طول الأمل والاغترار ببُعد الأجل ! ومن يدري متى ساعته ؟ إنها لا تأتي إلاّ بغتة ، وكل خطوة أخطوها تدنيني منها ، وكل نَفس أتنفَّسه يقرّبني إليها ، فالحياة خطوات محدودة

وأنفاس معدودة ثم يحين الموعد لا مفرّ منه ولا وزَر ، لا يتقدم ولا يتأخر ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[1] .

لقد تذكّرت اليوم وأنا أستعيد ماضي تلك الأيام ما روي عن الحسن البصري يوم كان يسير في جنازة فلمّا انتهوا من الدفن قال لشيخ في جانبه : أتظن أن هذا الميت يودّ أن يعود إلى الدنيا ليعمل صالحاً ويستغفر عما سلف منه ؟ فقال الشيخ : اللهمَّ نعم ، فقال الحسن : فكن أنت ، ولمَ لا نكون كلّنا كهذا الميّت ؟

دمشق القديمة

لقد كان لي فيما رأيت اليوم من تغيّر الأخلاق وفيما أشاهده وأسمعه من أخبار وحكايات حافز دفعني إلى العودة بالذاكرة إلى حياتي الماضية في دمشق القديمة . لقد هربت ساعة من حياة اليوم إلى ساعة من حياة الأمس ، وما أكثر ما يفرّ المسنّ من حاضره ويلجأُ إلى شبابه الماضي أو ماضي شبابه

(١) سورة النحل : ٦١ .

يتفيأ ظلاله .

لقد تغيّر اليوم كلُّ شيء! تغيّرت دمشق بحجرها وشجرها وبشرها . تغيّرت بمائها وهوائها ، بأرضها وسمائها ، برجالها ونسائها وأبنائها ، بأخلاقها وعاداتها . .

إن كثيرين من الناس يتمنّون لو تأخّرت حياتهم إلى ما بعد مئة عام ليتمتّعوا بما سوف تنتجه الحضارة ويخترعه العلم من تقنيات . . أما أنا فأتمنّى لو أستطيع اختراق الزمن لأعود إلى الماضي وأعيش قبل سبعين عاماً وأتمتّع بما يعرفه المعمّرون والمخضرَمون من حياة حلوة بسيطة نظيفة في كل شيء . لقد كانت النظافة في النفوس والأجسام ، وفي القلوب والألسنة ، كانت تلفّ الحياة بكل جوانبها ما ظهر منها وما استتر ، وكانت الحياة نفسها حلوة بسيطة خالية من المكر والتعقيد ، وكانت العلاقات بين الناس علاقاتٍ إنسانيةً قائمة على الصدق والوضوح .

لقد كتب الباحثون والدارسون عن تاريخ دمشق وعن أبنيتها وأسوارها وأبوابها ، وعن مساجدها

ومدارسها ، وعن أعلامها وعلمائها ، وآثرت أن يكون حديثي اليوم عن أخلاق دمشق ، فكما عُرفت دمشق اليوم بأنها مدينة الصمود والتصدّي وأنها نبض الشارع العربي ، وقلب العروبة النابض ، ينبغي أن تُعرف بما كانت تشتهر به من كونها قلعة للأخلاق .

وإذا ذكرنا أخلاق دمشق كفيناها الحديث عمّا كان فيها من فضل ونبل ، ومن نخوة وشهامة ، وعن كونها قِبلة الأنظار وشهوة السائحين ومهوى أفئدة طالبي العلم ، يأوي إليها الغريب فإذا هو كالقريب ، ويلجأ إليها الخائف المستجير فإذا هو في حماية وطمأنينة وأمان . دمشق تنافس الحسان في أسر القلوب وشدّ الأنظار ، وتنافس الضرائر في أنها الحاضرة التي لا تنافس ، فمن عرفها نسي غيرها ، ومن أقام فيها طاب له فيها المقام ، وكانت له المسكن والوطن . . كم من رجل مرّ بها في طريقه إلى الحج فأسرته فعاد إليها وسكن فيها ، وكم من تاجر جاء يشتري ويبيع فراق له خلق أهلها ولين معاملتهم فأقام واستبدلها بما كان فيه ! ألست ترى من أهل دمشق اليوم آل الحلبي والديري والحمصي

والحموي ، بل إن فيها آل الجزائري والتونسي والمغـربـي والمصـري والطنطـاوي والبيـروتـي والبغدادي والموصلي وغيرهم كثير ، وهم جميعاً دمشقيون بما حبا الله دمشق من قدرة على أن تطبع من يقيم فيها بطابعها وتصبِغَه بصبغتها فإذا كل من فيها دمشقي ، ولو عددت علماءها لذكرت منهم الشيخ بـدر الـديـن الحسنـي المغـربـي ، والشيـخ طـاهـر الجزائري ، والخضر الحسين التونسي ، وسعيد الأفغاني ، والشيخ محيي الدين الكردي ، والشيخ عبد القادر الأرناؤوط وأمثالَهم ممَّن طاب مُقامهم في دمشق وطابت بهم دمشق . وقد لا يدرك هذه الخاصّة لدمشق إلاّ من عاش في غيرها وبقي الناس حيث عاش ينظرون إليه وإلى أولاده وأحفاده من بعده على أنهم وافدون غرباء ، ولو أقاموا طويلاً وتحدثوا بلهجة أهل البلد ولبسوا زيَّهم !

على أني أحبّ أن أشير إلى أن كثيرين ممّن ننسبهم من الأسر الدمشقية إلى بلاد عربية أخرى كالمغرب أو تونس أو الجزائر هم أحفاد أولئك الذي انطلقوا من جزيرة العرب وبلاد الشام أيام الفتوح

حاملين رايات المجد ودعوة الخير إلى تلك البلاد ، يعودون إلى الشام كما تعود الطيور المهاجرة إلى أعشاشها القديمة فتستقبلهم دمشق فاتحة ذراعيها كما تستقبل بيوت الأجداد الأولاد والأحفاد .

كان أهل الشام إذا حلّ بينهم غريب طلباً للعلم أو الأمن أو الرزق أكرموه وقدّموا له العون حتى يشعر أنه واحد منهم ، وصف ذلك هندي مسلم دخل دمشق سنة ١٩٠٠م فقال : « أنساني أهل الشام غربتي ، وكدت أذوب بينهم لشدّة تعلّقي بدينهم ولغتهم وعلمائهم » . وعبّر عنه صاحب مجلّة لسان العرب التي كانت تصدر في الآستانة سنة ١٣٣١هـ فقال : « إن حفاوة عرب الشام بالغريب تنسيه مرارة الغربة بل تنسيه أهله وبلده ولسانه! » .

ورحم الله الشاعر الصافي النجفي فلقد جاء إلى الشام فأحبّها وعاش فيها وقال :

أتيتُ جلَّقَ مجتازاً على عَجَلٍ
فأعجبتْني حتى اخترتُها وطنا
عجبتُ ممَّن أتاها كيف يَبرحُها
فهل يرى في سِواها عن دمشق غِنى

يكاد ينسى غريبُ الدار موطنَه
في رَبْعها ويَعافُ الأهلَ والسّكنا

لقد كان أهل دمشق أو أكثرهم من أحاسن الناس أخلاقاً ، الذين وصفهم النبي ﷺ بأنهم الموطَّؤون أكنافاً الذين يألفون ويؤلَفون . وليس شيء أثقلَ في الميزان يومَ القيامة مِن حُسن الخُلُق ، كما قال ﷺ .

والخُلُق في اللغة هو الطبع والسجيّة ، وهو في طبيعته قوّة كامنة في النفس ، فإذا كانت النفس صالحة نزعت تلك القوة بصاحبها إلى فعل الخير والصلاح دون مشقّة أو تكلّف ، وإذا كانت نفساً سيئة فاجرة نزعت تلك القوة بها نحو الشرّ والفساد والبغي والعدوان .

ويستمدّ المعيار الخُلقي عادة من الدّين ومن الفطرة السليمة ومن العُرف الاجتماعي . وأهمّ ما أراه في الأخلاق جانبها الاجتماعي ؛ لأن أثرَ الخلق الفردي لا يتعدّى صاحبه ، وأما الخلق الاجتماعي فهو السلوك الذي تظهر آثاره جليّة في المجتمع سلباً أو إيجاباً ، هدماً أو بناءً ، لذلك قال ﷺ : « خالق

الناس بخلق حسن » .

ولعل أبرز ما نفتقده اليوم من أخلاقنا الاجتماعية حسنُ الخلق ، وإن الصدق من حسن الخلق ، وإن دفع الأذى ومنع الضرر عن الناس عامّة وعن الجار خاصة من حسن الخلق ، وإن الصبر والحياء والتواضع من حسن الخلق . أما الصدق فقد أصبح قليلاً وكأنه نقد قديم لم يعد الناس يتعاملون به ، وهجره حتى العمّال الذين تستأجرهم لبناءٍ أو ترميمٍ في بيتك وهم الذين يرتبط كسبهم ورزقهم بصدقهم! وأما الأذى فلا يرى الكثيرون مانعاً من أن يقع على غيرهم إذا جرّ ذلك نفعاً إليهم . . وأما الحياء والتواضع فقد تبحث كثيراً قبل أن تلقاهما! لم يعد أكثر الناس يقبلون أن تكون لهم أسماء يُعرفون بها كسائر خَلق الله بل لا بدّ أن تسبقها صفات أو ألقاب تعوّض ما يشعرون به من نقص ؛ فما من أحد يتحدث على الشاشة الصغيرة إلاّ وهو أستاذ دكتور ، أو باحث مفكّر ، وإذا كتب في أدب أو نقد فهو أديب كبير أو ناقد مبدع ، وإن قدّم برنامجاً أو أجرى مقابلة فهو إعلامي لامع ونجم ساطع . . وكأن المجتمع

خلا من الناس العاديّين من أمثالنا ، وقد ابتذلت الألقاب وهزلت فأصبح الذي يعلّم التاريخ أي ينقل ما في الكتاب إلى الطلاب مؤرخاً! ومعلّم اللغة لغوياً ، ومعلّم النحو نحويّاً وهكذا أصبحنا نرى بيننا بحمد الله الأئمة والمفسّرين والفقهاءَ المجتهدين ، وسمعنا في صفات بعضهم ما لم نسمعه عن ابن مسعود أو أبي حنيفة أو الشافعي . ولقد عاش أبو بكر صدّيقاً ومات صدّيقاً ، وعاش عمر فاروقاً ومات فاروقاً ، وعاش أبو عبيدة أميناً ومات أميناً ، لم نسمع لأحد سلسلة ألقاب ترافق اسمه فكان وصفه لصدقه اسماً آخر له ما زلنا نذكره به بعد كل تلك القرون فهل يبقى واحد من أصحاب الصفات والألقاب اليوم محتفظاً بها بعد وفاته بسنة أو أشهر ؟

ونعود إلى أخلاق دمشق فنقول كأن المدن تتفاوت فيما بينها بالصفات تفاوت الأقوام والشعوب ، فمن المدن مدن تدبّ الحياة فيها مع شروق الشمس فإذا وقفتَ ساعة الصباح في شارع من شوارعها أو ساحةٍ من ساحاتها رأيت الناس رجالاً ونساءً كباراً وشباباً يسرع كل منهم إلى عمله ، لا

ينظر أحد منهم إلى أحد ، ولا يكاد يكلم أحد منهم أحداً ، لكل منهم موعد مع العمل يريد أن يدركه في حينه لا يتخلّف عنه ولا يتأخر ، إنها المدن التي يعيش أهلها حياة العمل والهمّة والجدّ والنشاط ، رأيتها صيفاً ورأيتها شتاءً فكانت الصورة واحدة والأيام متشابهة ، وكان الناس في المحلات والفنادق والمطاعم على مثل ما هم عليه في الشوارع جدّاً ونشاطاً . ومن المدن مدن مسترخية لا يصحو أهلها قبل وقت الضحى ، يخرجون في راحة وأناة مطمئنين كأنْ لا شيء سيفوتهم ولا شيء يستعجلهم!! إن هاتين الصورتين تجدهما عندنا الآن في شارعين مختلفين في المدينة! فكثير من شوارعنا وطرقنا وأزقّتنا تفتح حوانيتُها ومحلاّتها مع صياح الديكة ، وتتأخر الأخرى نؤوم الضحى فلا تفتح إلا قبيل الظهر بقليل!

كأن المدن تخلع على ساكنيها بعض صفاتها ، أو كأنهم يشاركونها ببعض ما فيها من صفات ، ألا يحكي جفاء بعض الناس ملوحة صخورهم ، وتحكي ألفاظ لغتهم وحدّة نبرتهم شيئاً من قسوة

طبيعتهم وصلابة حجرهم . . لقد رأيت شبهاً شديداً بين انغلاقِ نفوس بعض الشعوب وجفوتِهم عن الغريب وانغلاقِ أبواب بيوتهم دونه . . ورأيت في دمشق انفتاح القلوب للغريب كانفتاح أبوابهم لاستقباله ، فلكم رأيت في حي العمارة وفي محلاّت سوق الحميدية ضيوفاً من لبنانيين ومصريين وأوروبيين يشربون الشاي فإذا سألت عنهم قيل إنهم أغراب يسألون عن محلّ كذا فأحببنا أن نكرمهم .

إنها أخلاق دمشق التي كان الحبّ يجمع أهلها ، يؤلف بين أفراد الأسرة ، ويجمع أبناء الحيّ ، ويوحّد بين الأحياء والمناطق في دمشق كلها . . لم يكن أهل دمشق ملائكة ، كانت تقع بينهم أحداث تفرّق وخلافات ومشاجرات ولكن سرعان ما كان يطفئ نارها وجهاء الحيّ وعقلاؤه ويطوونها في جلسات حلوة تمتلئ نخوة وشهامة ، وكثيراً ما حضرت مثل تلك الجلسات وسمعت ما دار فيها من كلام وحوار يملأ النفس عزّة وفخاراً .

كان أهل الأحياء يتزاورون في المناسبات

المختلفة ، في المواسم الدينية والوطنية ، وفي مناسبات الأفراح والأحزان . كانت مناسبة المولد النبوي من أعظم المناسبات التي يتنافس فيها الدمشقيون بتزيين أحيائهم وتبادل الزيارات فيما بين وفود الأحياء ، فلكل حيّ يوم يحتفل فيه ، وتحضر احتفاله سائر الأحياء ، وتكون تلك الزيارات والاجتماعات مناسبة للتصافي وتجديد الودّ وتقوية اللُحمة بين أبناء المدينة . لقد شهدت هذه اللقاءات الحارّة الجميلة في حيّ العمارة وفي الشاغور والقنوات وفي حي ساروجة والميدان . .

ورأيت كم كان بين أبناء الحيّ الواحد من حبّ صادق وأخوّة لا تكلّف فيها ولا تصنّع . لم يكن أحد في الحيّ يجد حرجاً في طلب الطعام من بيت جاره إذا فاجأه ضيف بليل ، وكثيراً ما طرق بابنا جار جاء يسألنا صحناً أو صحنين مما لدينا . وليس لك إذ ذاك إلّا جارك فعندك ضيف مفاجئ وليس بقربك محلّ ولا مطعم ! وليس عندك ما يكفي ضيفك . . ولقد ألفنا ذلك وتعوّدناه حتى إن والدتي كانت تسألني أيأخذه بارداً أم أسخّنه له ؟ لقد سألت صديقاً لي منذ

أيام يسكن في حيّ جديد وفي بناء يشمخ بأنفه نحو السماء عن جاره فقال إنه لا يعرفه بل لا يعرف أحداً من جيرانه لأنه جديد في البناء لمّا يمضِ على سكنه فيه سنة واحدة وهو لا يجتمع بهم إلا نادراً في المصعد !! أفهؤلاء دمشقيون ؟

لقد نقلت إلينا الأبنية الأوربيةُ الطرازِ أخلاقَ أهلها وما هم عليه من فرديّة وعزلة . لقد فرّقت الشوارع والمسافات والتفاوت في البناء أبناء المدينة ، وحجبت الأبنية أبناء البناء الواحد بعضَهم عن بعض ، بل لقد جعلت أساليب الحياة الحديثة أبناء الأسرة الواحدة موزَّعين في غرف البيت لكل منهم تلفازه أو حاسوبه ، وقلّ أن يجتمع اثنان منهم في سهرة ! فأين هذه الحياة المبعثرة من حياة الأسرة الدمشقية التي تجتمع ليلاً حول البركة في أرض الديار كباراً وصغاراً رجالاً ونساءً في سمر هادئ هادف تحت الياسمين أو النارنجة في جوّ من الألفة والمحبّة .

لقد تغيّرت الحياة في دمشق فلم يعد فيها ما يذكّر

من عرفها قديماً بها إلاّ ما قام فيها اليوم من ردّة فعل على قسوة الحياة فيها وجفائها من مثل صندوق العافية ومشروع حفظ النعمة وجمعيات أصدقاء دمشق والتوعية الاجتماعية وأمثالها .

لقد تغيّرت الحياة في دمشق ، وتغيّرت الأخلاق في دمشق . وتغيّر في دمشق الحجر والشجر والبشر .

أما الحجر فقد علا وتطاول واشمخرّ .

وأما الشجر فقد شحب لونه وتقلّص وانحسر .

وأما البشر فأنتم أعلم بما حلّ بالبشر ، وما استولى على نفوس الكثيرين من الشرّ . حتى الربيع الدمشقي تغيّر وانحسر ظلّه وقصر عمره ، وتغيّرت الغوطة ؛ تقلّصت مساحتها ، وقلّ ماؤها ، وجفّت تربتها . .

وكما تغيّرت نفوس البشر تغيّرت طعوم الثمر ، وأصبح كل شيء متكلّفاً مصطَنعاً ، فكلام الوعّاظ لا أثر له ، وكلام الناس لا طعم له ، والتفاح كالتبن ، والخيار كالخشب ، حتى الماء والهواء لم يعد لهما

ذلك الأثر المنعش فلا هذا بالعليل ولا ذاك يشفي الغليل .

هل نقول إن بين كل من البيئة الطبيعية وأهلها مشابه يتركها كل منهما في الآخر . دمشق المدينة التي عاشت مطمئنة على زند الجبل الأشم قاسيون ، وأحاط بها السواران الأخضران من غوطتيها الشرقية والغربية ، وجرت عروقها مياهاً في أنهارٍ سبعةٍ تنقل الودّ مع الريّ من أرض إلى أرض ومن بيت إلى بيت ثم تترك ما فاض من مائها ليكتب على ثرى الغوطة مآثر الدمشقيين في تعاونهم وتكافلهم ونظافتهم ؛ فلقد كان كل واحد منهم حارساً على مياه جاره ليصل إليه حقّه كاملاً ونظيفاً .

دمشق التي احتضنت مسجدها الأموي ، وعلتها قبة النسر ، وازدهت بمآذنها وأصوات دعاتها مرافقةً للناس في حياتهم باعثة في نفوسهم الشعور بالأمن والإيمان والطمأنينة .

إني لأعجب إذ أرى دمشق هي دمشق وأرى الناس فيها ، ولكني كأني أنظر إلى صورةٍ لما عرفت

ولست أنظر إلى ما عرفت . ليست الحياة التي أرى والتي أعيش هي الحياة التي عرفت والتي عشت! ما أصعب أن يشعر الإنسان بالغربة في وطنه ، فقد الأحبة غربة ، فقد الجوّ الدمشقي غربة ، فقد القيم والأخلاق غربة ، فقد الهواء المنعش والماء الطيّب غربة ، أين هواء دمشق من روائح المازوت والهباب المنبعث من عوادم السيارات ؟!

إن من عرف دمشق القديمة بحياتها وروحها يشعر اليوم بالحنين إليها ، وما أصعب أن تحنّ إلى بلدك وأنت فيه ، أرأيت إلى الأب وابنه يعيشان في بيت واحد ، لا يشعر هذا بأبوّة ولا ذاك ببنوّة ؟ ما أحلى عذاب الحنين حين تكون بعيداً عمّن تحنّ إليه ، وما أقساه حين تحنّ إلى من هو بين يديك وقد تغيّر أو جفاك . مسكين ذلك المسكون الذي أنشد :

آه يـــا شـــام كيــف أشــرح حبّـــي
وأنـــا فيـــكِ دائمـــاً مسكـــونُ ؟!

الحنين إلى دمشق شديد وأنت فيها مقيم ، وهو إليها أشدّ حين تكون هي في قلبك . إنها لصيقة

بالفكر مقيمة في القلب جارية في العروق .

دمشق يقف عندها التاريخ ، يخشع لديها التاريخ ، هي تاريخ التاريخ ، منها يبدأ وفيها يُصنع ، لو تكلّم بردى لحكى ما جرى على جانبيه من أيام ملوك غسّان وأولاد جبلة إلى السابع عشر من نيسان يوم التحرير والجلاء مروراً بالأمويين من فاتحين ومعرّبين كعبد الملك بن مروان ومن ربّانيين وراشدين كعمر بن عبد العزيز .

ولو تحدّث قاسيون الذي يئن اليوم تحت سيارات الفارّين من الشرطة الأخلاقية وتحت أنفاس العشاق لذكر مآثر الرجال الذين عرفهم من عبّاد صالحين وفرسان ثائرين وخُشَّع تائبين . ولو تكلّمت الغوطة لزيّنت التاريخ بحديثها العطر عن بطولات رجال الشام وفرسانها وثوارها ولجمّلت الثورات بالبطولات والتضحيات .

كان للحياة في دمشق القديمة طعم أيّ طعم ، كان الحبّ يعيش في الحارات كما في القلوب مع الناس ، وكانت للحياة في دمشق القديمة على انعدام

الثراء ومظاهره فيها رائحة أي رائحة . . كانت ذات نكهة حلوة خاصّة ممتزجة بالطيب والطمأنينة وراحة النفس . كان أهل الحيّ الدمشقي أو أهل الحارة أسرة واحدة ، يعرف بعضهم بعضاً أتمّ المعرفة وأعمقها وأصدقها ، يتبادلون الخدمات والمساعدات كما يتبادلون العواطف ، أولاد الحارة أبناء لأي أسرة في الحيّ ، أبناء لكل أسرة ، فكل أمّ في الحارة هي أمهم جميعاً ، وكل أب في الحيّ أبوهم جميعاً ، لا يقع في بيت من بيوت الحيّ حادث إلاّ أصاب الجميع ؛ فإذا مات واحد من أهل الحارة انفتحت بيوت فيها للعزاء ، وشارك الجميع في الحزن .

لقد تذكّرت هذا الذي أقوله منذ أسبوعين حين ذهبت للعزاء في أحد بيوتات دمشق الجديدة فسمعت وأنا في مدخل البناء صوت قارئ القرآن يعلو عليه صوت الغناء من مذياع جارٍ من جيران المتوفَّى!! لم يحسب لجاره حساباً ولا لكرامة المشاعر وأحاسيس المعزّين . وتذكّرت حين شبّ حريق منذ أشهر في أحد البيوت فاكتفى الناس بالرثاء لساكنيه والشفقة

عليهم والدعاء لهم! تذكّرت حريقاً شبّ في بيت في حارتنا القديمة فلم يكد الخبر ينتشر حتى هبّ أهل الحيّ كباراً وصغاراً يساعدون على إخماده ، ثم لم يأت المساء حتى كان في البيت عشرات الفرش والوسائد والأغطية التي بعث بها أهل الحي تعويضاً عمّا احترق .

تلك أمثلة من أخلاق الدمشقيين عرفتها وعشتها وأخشى أن تصبح تاريخاً ينساه أبناؤنا أو يجهلونه كما ينسون أو يجهلون الكثير من تاريخ أمتهم ومآثرها !

لدمشق سحر لا يعادل أثرَه في النفس أثر ؛ إنني أجد من راحة النفس وطمأنينة الروح حين أسير في أزقّة دمشق القديمة وحاراتها في القيمرية والعمارة ، في الشاغور والقنوات وساروجة والميدان بين البيوت العربية المتواضعة الخاشعة ما لا أجده في الشوارع الجديدة والأبنية الصاعدة إلى السماء في خيلاء وكبرياء ، هذه التي أجد مثلها وأضخم منها وأعلى في كل بلدٍ من بلاد الشرق والغرب . . وأما

تلك ففريدة فرادة دمشق ، تلك الحارات أشعر وأنا فيها أنها قريبة مني وأن أحجار جدرانها تبوح لي بما تبوح الأم به لابنها من ذكريات عزيزة يأسره حديثها وتشجيه آهاتها .

وحرام على دمشقي عرف دمشق وعاش حياتها وأدرك من كان فيها من رجال وما وقع فيها من أحداث وبطولات أخلاقية لا تقلّ عن بطولات المعارك والثورات أن يكتم ما يعرف لأن ما ينشره من مآثرها ومآثرهم رسالة موجَّهة إلى أهل دمشق اليوم ودعوة إلى المقيمين فيها على اختلاف أديانهم ومذاهبهم وعروقهم وأجناسهم وأصولهم وانتماءاتهم ليعيدوا إلى دمشق وإلى حياتهم فيها ما عاش فيها من حبٍّ جامع وتعاون صادق ، وما عرفته الحياة فيها من صدق المودّة والإخاء ونقاء السريرة والصفاء .

حكايات من دمشق

ليس ما أرويه لكم اليوم حكايات من التاريخ ، وليست أحاديث شاعت بين الناس . إنها قصص وأحداث عاصرتها وعرفت أشخاصها وشهدت وقائعها أنقلها إليكم بأمانة ودقة ولكني حذفت أسماء أصحابها لأني رأيت معظمهم يرغب في ذلك ويلحّ عليه إذ لم يكن من أخلاق المجتمع الدمشقي التبجُّحُ بالمعروف .

تاجر من دمشق :

القصة الأولى قصة عن تاجر دمشقي ، شاعت بين الناس وانتشرت وإن كان أكثر الناس ينسبونها إلى غير صاحبها . إنها قصة رجل اشترى سمعته بالذهب ، فلقد كنت وأنا في العاشرة أو فوقها بقليل بصحبة والدي في سوق الحميدية حين لقي صاحباً له جميل الهيئة ذا عمة صفراء (أغباني) ومعطف أنيق يغطّي (صاية) لامعة يلفّها شال مخطَّط . لقد كان بينهما لقاء حارّ احتفى فيه كل منهما بصاحبه ، ولما افترقا سألت والدي عمّن يكون هذا الذي يستحق منه كل هذه الحفاوة ، قال إنه واحد من أكابر تجار

دمشق ، محلّه في السوق مقصود ، ثم إنه من أصحاب الفضل والعلم والخلق الرفيع ، وروى لي عنه الحادثة الآتية . قال : كان الحجاج الأتراك يعبرون بلاد الشام في طريقهم إلى مكة ، يتخذون من دمشق محطة لهم يستريحون فيها ويبيعون ما يحملونه من سجاد وصنوبر و(سماورات) وأغطية من صوف الماعز ومصنوعات جلدية ، فينفقون بعض ثمنها في رحلة الحج ويحتفظون بالباقي لشراء ما يحتاجون إليه من دمشق ، وقد تعوّدوا أن يودعوا أموالهم في دمشق عند تاجر يدلّ بعضهم بعضاً عليه، معروفٍ بالأمانة ويستردونها عند عودتهم بعد شهر أو شهرين . وحدث أن عاد أحد الحجاج ودخل السوق قاصداً المحلّ الذي أودع فيه أمانته ووقعت عينه على صاحبنا التاجر الدمشقي فدخل محلّه وطالبه بردّ أمانته! فقال له : أأنت وضعت عندي أمانة ؟ نعم يا أخي ، وعلامتها أنها أربع ليرات ذهبية في منديل صغير أبيض .

نادى صاحب المحل عاملاً عنده وطلب إليه البحث في الصندوق عن أمانة الرجل فلم يعثر على شيء . سأل التاجر : هل أنت متأكد أنها أربع ليرات ؟ ولمّا أكّد له ذلك نهض إلى صندوقه وأحضر

له أربع ليرات ذهبية وأعطاها للحاج الذي أخذها وشكره وانصرف .

ولم يكد الحاج يسير أمتاراً حتى رأى في محلّ قريبٍ ، الرجلَ الذي أودع أمانته عنده فدخل وسلّم وطلب أمانته فجيء له بها في منديلها فأخذها وعاد إلى المحل السابق ليقول لصاحبه لقد وجدت من وضعت أمانتي عنده وأخذتها فخذ مالك بارك الله لك فيه ، ولكن قل لي كيف أعطيتني وليس لي عندك شيء ؟ فقال له : لو لم أعطك لخشيت أن تقول في السوق إنني سرقتك ، أفلا أشتري سمعتي في السوق بأربع ليرات ؟!

تلك حادثة سمعتها من أبي ، عرفت صاحبها وأحببته ثم عرفت ابنه وأحببته ، وعرفت حفيده مؤخراً وأحببته .

تاجر آخر

وأما القصة الثانية فلتاجر دمشقي (مُرّ) كما كان يصفه والدي ، وهي كلمة كانوا يصفون بها من قوي في صنعته . كان رقيقاً أنيق اللباس قليل الكلام ، له

صديقان لا يفارقانه : طربوشه وعكّازه (البسطون وهي عصا ذات عقفة من أعلاها) ، عرفته وجلست معه وأكلت عنده واستقبلته في بيتنا غير مرّة . كنت ابن أربع عشرة سنة حين طرق باب بيتنا في حيّ العمارة رجلان يسألان عن والدي ، وحين استقبلهما فهمت مما دار بينهم أن ذلك التاجر اشترى كميّة كبيرة من السكّر وشحنها بحراً وكانت الحرب العالمية الثانية مستعرة وكنا في الشام نفتقد السكر الأبيض بجميع أنواعه وأشكاله ؛ الأكواز والمُقطّع والناعم ، ونستعمل سكراً بنيّ اللون كالزعتر فإذا أضفناه إلى الحليب أصبح وكأنه ممزوج بالكاكاو أو محلًّى بالدبس ، لقد أخبر الرجلان والدي أن صديقه إذا لم يُنقذ فسيعلن إفلاسه وسيلحق به أربعة أو خمسة من كرام التجار ، لقد تسرَّبت الأخبار بأن الباخرة التي تنقل السكر قد غرقت ، والرجل قد دفع ثمنها كاملاً كما أنه قد قبض ممن باعهم سلفاً أثمان ما اشتروه ، وعليه الآن أن يسلّم السكر أو يردّ ما دفعوه ، وهو في بيته معتكف ينتظر واحدة من مصيبتين في جيبه أو صحّته! وناشدا والدي أن يسعى

معهما لإنقاذه .

أسرع والدي معهما إلى السوق وعادوا بعد ساعات وجلسوا يحصون ما جاؤوا به من مال ويذكرون مع كل مبلغ اسماً حتى إذا انتهوا انصرف الرجلان بالمال وعادا في اليوم الثاني ومعهما أوراق سمعت اسمها أول مرة حين قالوا سندات وقالوا كمبياليات ، ثم ذهبنا جميعاً هما ووالدي وأنا إلى بيت التاجر ، وفتح ابنه الباب وقال حين سأله والدي عن أبيه إنه جالس في البهو لا يكلّم أحداً . دخلنا قاعة كبيرة يجلس الرجل في ركن منها مرتدياً ثيابه وطربوشه مسنداً ذقنه إلى كفّيه وقد أمسك بهما عصاه واستند عليها ، كان صوت والدي جهورياً يسبقه إلى كل مكان يقصده ، وما إن فتح باب القاعة حتى كان صوته يعلو مردّداً : يا الله ، يا مفرّج الكروب ويا جابر القلوب . سمع الرجل صوت والدي فلم يزد على رفع نظره إليه ، ثم نهض متثاقلاً ومدّ يده مصافحاً دون أن يتكلم بكلمة! سلّموا عليه ثم جلسوا ، وارتفع صوت والدي يقول : يا فلان إن الله يعطي ويأخذ ، ويكسر ويجبر ، وقد آذن بالفرج

وجبر الكسر ، ثم التفت إلى أحد الرجلين وقال له : أعطه الحوالات والسندات ، فقام الرجل ونثرها أمامه ، والتاجر ذاهل لأنه لم يكن يعلم أن أحداً علم بأمره ، أسرع بوضع نظارته على عينيه وراح ينقل بصره في الإيصالات والسندات وفيها سداد الاستحقاق وبراءة الذمّة . . وينقل نظراته بين الجالسين وشفتاه تتحركان بلا كلام وكأنه يهمّ بالكلام ولكنّ شيئاً يلجمه ، فقال له والدي : اسمع يا أبا فلان ، هذا أمر لا يعلمه إلاّ الله ثم الذين تراهم ، وأمّا الذين سدّدوا فقد أقسموا علينا ألاّ نقول أسماءهم وليس في السوق من يعلم بما جرى ، وأنت صاحب فضل سابق على الجميع ، نناشدك بالله أن تنزل غداً إلى السوق وتمارسَ عملك في محلّك وكأن شيئاً لم يحدث . وهكذا كان وانتهى الموضوع وحفظت للرجل كرامته ومستقبله بفضل تكافل نفر من كرام التجار حفظوا صديقهم وحفظوا السوق نفسه من هزّة كانت ستودي بعدد منهم .

تلك أمثولة من أخلاق تجار دمشق ، وذلك مثَل لتكافلٍ قام على الوفاء والنخوة والشهامة .

صناعيون

ونترك التجار ونقصد الصناعيين لنرى فصلاً آخر من فصول الأمانة والوفاء وإيثار الصداقة على المال في القصة التالية :

رجلان من أرباب الصناعة في دمشق لكلٍّ منهما مصنع حسن السمعة وفير الإنتاج . صودر مصنع أحدهما وهو لا يملك شيئاً غيره فاعتكف الرجل في بيته منطوياً على حزنه معتصماً بإيمانه ، وكانت له زوجة وأولاد وبنات فاتفق معهم على مغادرة البلد ليبدأ عملاً جديداً في بلد جديد ، ولكن الأمر يحتاج إلى مال ، فلا بدّ إذاً أن يبيع بيته وهو آخر ما يملك . بادر إلى صديقه وأسرّ إليه بما عزمت الأسرة عليه وطلب إليه أن يساعده في إيجاد مشترٍ لبيته ، وأعدّ له وكالةً رسمية فوّض إليه فيها أمر البيع وكل ما يقتضيه من تسجيل عقاري وقبض للثمن ، وسافر لدراسة الجوّ الجديد وتهيئة العمل المناسب ، اتصل الرجل بعد أسبوعين بصاحبه ليسمع منه أن بيته قد بيع وبالسعر الذي حدّده له ، وكان على ما أذكر نحواً من

مئة وخمسين ألفاً مع أثاثه ـ وهو مبلغ جيّد جداً في تلك الأيام ، وقد ساعد على بلوغه ذلك الثمن كونه في شارع من شوارع دمشق الفخمة . حضر الرجل وتغدّى عند صاحبه وقبض ثمن منزله وعاد أدراجه إلى موطنه الجديد وأنشأ صناعة متواضعة لم تلبث بفضل خبرته وحُسن سيرته أن اتّسعت وآتت أحسن الثمار ، وكان الرجل يتردّد إلى دمشق لزيارة صاحبه ومَن بقي من أهله ، ولم تمض سنوات حتى قال لصاحبه أريد شراء بيت متواضع في دمشق ، فلقد اشتدّ شوق زوجتي وأولادي إلى مدينتهم وليكون محطّة لنا يُقيم فيه من يزور دمشق منّا . . ولا أشك أن مبلغاً كالمبلغ الذي بعت به بيتي لم يعد كافياً إلا لبيت صغير في أطراف دمشق ، فوعده صاحبه أن يبذُل ما يستطيع لتأمين سكن مناسب ولم يمض أسبوعان حتى هتف له أن يأتي ليرى البيت الذي اشتراه له .

أسرع صديقه فرحاً إلى دمشق واستقبله صاحبه ثم اصطحبه بعد الغداء بسيارته مجتازاً به بعض شوارع دمشق قائلاً له : إن البيت الجديد بحمد الله

قريب من بيته القديم ، فرح الرجل وأكّد له أن هذا سيسعد زوجته وأولاده لاعتيادهم السكن في ذلك الحيّ . وقفت السيارة أمام البناء ، فقال له : يا رجل هذا هو البناء الذي كنا نسكن فيه . فقال له صاحبه : نعم نعم ، أذكر ذلك ولكني لست واثقاً إذا كان البيت في الطابق (الدور) القديم نفسه ! صعد الرجلان وفي نفس كلٍّ منهما ما فيها من آمال وأحلام وتوقّع مفاجآت . وصل الرجلان إلى باب الشقّة وأخرج الرجل المفتاح ووضعه في الباب وصاحبه يصيح : كيف ذلك كيف ذلك ، يا للمصادفة ، إنه بيتنا نفسه ، كيف حصلت عليه ؟ إنه اليوم يساوي مئات الآلاف ، قال له : يا أخي سمٍّ بالله وادخل ، ولمّا دخل وجد أثاث بيته لم يتغيّر فالسجّاد والأثاث والفرش واللوحات والزجاجيّات وكل شيء في مكانه كاليوم الذي تركوه فيه ، وكان الصديق قد أحضر إلى البيت من نظّفه حتى عاد وكأن أصحابه لم يغادروه إلّا منذ ساعات ! .

وقف الرجل حائراً لا يدري ماذا يقول وعمَّ يسأل وعشرات الأفكار تتلاعب به وبتفكيره ، فبادره

صديقه بالقول : اسمع يا أخي ، هذا بيتك ، وهذا فرشك ، والله ما بعته ولا اشتريته ، ولا نقلته من اسمك . وليس المبلغ الذي دفعته لك يوم سافرت سوى دينٍ مِنّي ، ولو قلت لك ذلك يوم أعطيتك لرفضتَ فأنا أعرفك وأعرف عقلك ، ووالله لا آخذ فوقه ليرة واحدة ، فبارك الله لك في بيتك ومالك . امتلأت عيون الرجل بالدموع كما امتلأت نفسه بالفرح والامتنان وراح يخبر أهله بأن بيتهم قد عاد إليهم بفرشه وأثاثه ولكنه أكثر نظافة وبهجة . . وكان بين الصديقين عناق يحكي قصة صداقة ووفاء نبتت شجرتها في دمشق .

وزير

ونترك الآن رجال المال والأعمال لننتقل إلى جوّ آخر نرى فيه أمثلة من أخلاق المسؤولين والسياسيين ورجال الإدارة .

كنت في السادسة عشرة من عمري طالباً في الصف الأول الثانوي وكنا نسميه الصف العاشر . وكنت ذات صباح أرتدي ملابسي للذهاب إلى

المدرسة حين نادتني أمي وقالت « برضاي عليك أريد منك حاجة » فقلت اطلبي ما تريدين ، قالت أتعرف فلاناً الوزير ، قلت نعم أعرفه وأعرف بيته ، وقد لقيته في السنة الماضية مرتين عند آل فلان ، قالت : إذاً أسرع قبل أن ينزل إلى الوزارة وقل له : إن أهلي يسلّمون عليك ويقولون لك إن والدي قد مات ، وإن أخي الكبير مسافر ، وأخي الآخر مريض ، ولنا في وزارتك القضية الفلانية ولم يستطع أحد أن ينهيها لنا فنرجوك التوصية بإنهائها .

أسرعت إلى دار السيد الوزير وكان على بابه شرطيّ وسيارة . سألني الشرطي : ماذا تريد ؟ قلت أريد رؤية الوزير . قال هل تعرفه ؟ قلت نعم . قال : انتظر إنه نازل . وفتح الباب بعد دقائق وظهر الوزير فحيّاه الشرطي وقال له هذا الشاب يريد مقابلتكم . التفت الوزير نحوي وتبسّم ومدّ يده مصافحاً ، قلت له أنا ابن فلان ، فحيّاني ثانية ، وسألني عمّا أريد فلم أكد أبدأ بالكلام حتى قال لي : انتظر ، والتفت إلى الشرطي وقال له : يا ابني خذ السيارة واسبقوني إلى الوزارة وأنا سأحضر مشياً مع

الأخ ! ، وملأتني كلمة الأخ نشوة وسعادة . . ، لقد سار الوزير وسرت إلى جانبه أحدّثه وأشرح له قضية الأسرة وعيوني تتنقّل في الشارع موعدَ انطلاق الناس إلى أعمالهم هل يرونني بصحبة السيد الوزير ؟

لقد كان بين الفينة والفينة ينحني عليّ ويميل بأذنه نحو فمي لالتقاط كلمة تاهت عن أذنه ، أو للسؤال عن شيء أجملته . . وهكذا حتى بلغنا مبنى الوزارة فوقف مادّاً يده ليودّعني وهو يقول : يا بني سلّم على أهلك وقل لهم إن شاء الله سيصير خير .

لم أروِ الحادثة إلّا لأصوّر فيها لقطة سريعة واحدة هي تخلّي الوزير عن سيارته وسيره مع طالب في مرحلة الدراسة الثانوية ليسمع منه قصة أسرة ترجوه مساعدتها في قضية لها في وزارته . . والله لقد كان يسير إلى جانبي وكأنه أبي أو أخي الكبير . . لقد كنت أنا الذي خجلت وشعرت بالإحراج ولكنه ـ ولست أكتم ـ خجل ممتزج بالسعادة ، وإحراج يرفعه الكثير من غرور الشباب .

الوزير ثانية

وما دمنا مع هذا الوزير الدمشقي فسأروي حادثة ثانية عنه :

كان الرجل بعيداً عن الأحزاب وعن التصنيفات الفكرية (الآيديولوجية) التي سادت في بلادنا ، فلا هو في الكتلة الوطنية ولا هو من حزب الشعب ، إنه مستقلّ ، يقضي حياته بين الوزارة حين يُدعى إليها وبين مكتب المحاماة حين تبتعد الوزارة عنه ، ولم تكن الوزارات طويلة العمر في تلك الأيام ، إنه من أسرة دمشقية كريمة ، عرفته دمشق يقطع شوارعها وأسواقها يومياً بين بيته ومكتبه ودوائر العدل . أراد هذا الوزير يوماً أن يشتري برّاداً (ثلاجة) فقصد معرِضاً للبرّادات في ساحة الحريقة وأعجبه أحدها فسأل صاحب المحل عن ثمنه ثم قال له إنه يريد أن يشتريه بالتقسيط ، وعلى ثلاثة أقساط يدفع أحدها فوراً ثم يدفع القسطين الباقيين على رأس الشهرين القادمين . كان البائع يعرف الرجل باسمه وهيئته كما يعرفه أكثر الدمشقيين ، فوافق على طلبه وسأله عن

عنوان بيته ووعده أن يكون البرّاد عنده في اليوم الثاني . وتمّ ذلك .

مضى شهر فلم يدفع الرجل القسط الثاني ثم مضى الشهر الثاني والبائع ينتظر ولكنه لم يفتح فمه ولم يطلب وبقي واثقاً أن حقّه سيصل إليه . وتغيّرت الوزارة وأصبح صاحبنا وزيراً للعدل وحدث أن البائع عرضت له أو لصديق له قضيّة في الوزارة فكلّفه أن يسأل له عنها وذهب إلى الوزارة ذات صباح فإذا هو بالوزير وجهاً لوجه على سلّم الوزارة ! أسرع الوزير وسلّم عليه ثم أمسك ذراعه بلطف وقال له وهو يبتسم أرجو ألاّ تكون قد حضرت لرفع دعوى ضدّي لتأخري بالدفع . خجل الرجل وأقسم له أن ذلك لم يخطر على باله . . ثم لم تمض أيام حتى حضر الوزير إلى المعرض وسدّد القسطين المتبقيين مع الاعتذار عن التأخير .

رحمه الله ما كان أنظف يده ، وأعفّ نفسه ، وأشدّ حياءه . على أني لا أعني أن نظافة اليد وعفة النفس وشدّة الحياء صفات مقصورة على أهل عصر

معيَّن ومكان مجدَّد دون بقيّة الناس والأزمنة والأمكنة ، إنها صفات يتصف بها الطيّبون في كل زمان وكل مكان ، يكثُرون أو يقِلّون على تفاوت بين الأزمنة والأمكنة ، ويبقى الخير مذكوراً في الأمة ويبقى في الناس دوماً من يمثّله ويحييه ويعيش له .

ومن الجدير بالذكر أن المجتمع لم يكن يعدّ الفقر عيباً على الإطلاق ، وكان معظم الناس يعاملون الفقير ورقيق الحال معاملة فيها الكثير من اللطف حتى لا يشعر بأنهم ينظرون إليه نظرة خاصة . وكان الكثيرون من أسر الطبقة المتوسّطة ـ التي قلّت اليوم حتى انعدمت أو كادت ـ (يجيِّرون) أي يحوّلون ثياب أولادهم من جيل إلى جيل أو من أخ إلى أخ أصغر منه توفيراً لثمن ثوب جديد .

رئيس وزراء

وإذا كان الناس اليوم يعجبون لوزير لا يملك ثمن برّاد يدفعه نقداً ويضطر إلى شرائه بالتقسيط فلا شك أن عجبهم سيكون أشدّ إذا علموا أن أحد رؤساء الوزراء ، وهو رجل دمشقي طالما رأيته في طريقي

إلى الجامعة يحمل كيساً يضع فيه ما يشتريه من السوق ، تولّى الوزارة غير مرة ، وتولّى رئاسة الوزارة غير مرّة ، شارك في الحركات الوطنية وفي الثورة السورية ، وتشرّد وهرب إلى الأردن وفلسطين وإلى مصر والعراق وعاد بعد الاستقلال ليكون وزيراً فقيراً ورئيس وزراء أفقر !

حدّثني صديق لي بهذه القصة يوم حدثت منذ خمس وخمسين سنة ، ونسي أنه أخبرني بها فأعاد قصّها عليّ منذ شهرين ، ولا أستبعد أن يكون الآن بينكم فهو ممن يدمنون سماع المحاضرات .

قال : كنت مارّاً في سوق الحميدية قريباً من منعطف باب البريد حين سمعت صوتاً يناديني باسمي ، رفعت رأسي نحو الصوت فإذا بالخيّاط فلان يقول لي اصعد اصعد ، صعدت إلى محلّه وسألته عما يريد قال إنني أريد أن أريك هذه (البدلة) قلت وماذا فيها لأراها ؟ قال إنني أقلبها ـ وقَلْب البدلةِ أمر مشهور يعرفه منكم من كان مثلي سنّاً ورقّة حال أيام الشباب ، لقد كنا نلبس (بدلتنا)

سنين حتى تصبح لكثرة الغسيل والكيّ ، ولم يكن الغسيل على الناشف ، ناعمة لامعة كالمرآة وقد طار كل ما كان على وجه صوفها من شعر أو وَبَر أو زئبر أو زغب وغدت ملساء تحكي بنعومتها ولمعانها قصة عمرها المديد في خدمة لابسها ، عند ذلك نأخذها إلى الخياط نطلب إليه أن يقلبها أي يجعل ظاهرها باطناً وباطنها ظاهراً! لتبدو كالجديدة . . وكانت عملية معروفة منتشرة يمارسها أكثر الناس وأكثر الخياطين ، وكان أمهر الخيّاطين في القلب من يستطيع أن يخفي مكان الجيب الصغير في أعلى الطرف الأيسر من السترة (الجاكيت) لأنها ستصبح ظاهرة في أعلى الطرف الأيمن . وقد كثر هذا لأن تجارة (البالة) لم تكن معروفة . عجب صديقي من قول الخيّاط وقال له أي شيء في هذا ؟ بدلة طلب صاحبها أن تقلبها له ، فقال له صحيح ولكن هل تعرف هذه البدلة لمَن ؟ إنها لفلان بك الفلاني رئيس الوزراء !

نعم ، لو ذكرت لكم أسماء الصديق الراوي والخياط ورئيس الوزراء لعرفتموهم أو لعرفهم أكثركم .

هكذا كانت دمشق تُزهى بالأخلاق تمشي في شوارعها ممثَّلة بالناس ، يمشي الفقر مع الشرف فلا يعيبه ، وتمشي العفّة مع الفقر فلا يغتالها . لم يكن ليعيب أحداً فقرُه ، ولم يكن يعيب أحدَهم أن يكبوَ به حظّه أو تنزل به نكبة ، إنما كان يعيبهم ألّا يساعد بعضهم بعضاً . كانت الأخلاق في المجتمع الدمشقي أخلاق محبّة وغَيرة وتكافل ولم تكن أخلاقُ السوق أخلاقَ حقدٍ وحسد وشماتة وتطاحن . كان فقر الناس في الجيوب ، ولم يكن في القناعة والنفوس والقلوب .

أمين عام

رأينا أمثلة أو صوراً لسلوك المسؤولين من رجال السياسة والحكّام ، ومن الصناعيين والتجار ونُتبع حديثنا بمثال من حياة واحد من كبار رجال الإدارة ، كان أميناً عاماً لوزارة العدل ، عرف بالغَيرة والحرص على سمعة وزارته ونظافة القائمين فيها على حفظ العَدالة وتحقيقها .

كان رئيس الديوان والمسؤول عن شؤون الذاتية

في وزارة العدل جاراً لي وصديقاً . سكنّا متجاورين في دمشق القديمة ثم تجاورنا مجدّداً في المزة ، حدّثني ذات يوم قال : طلب إليّ الأمين العام منذ أيام أن أنتظره في الساعة الحادية عشرة ليلاً عند رأس سوق الحميدية ، فعجبت لطلبه ولكني لم أسأله ، فقد كان رجلاً ذا هيبة ووقار ، وكان قليل الكلام معروفاً بالحزم والجدّ . فكان كل ما فعلته أن أعدت أمامه ما فهمته منه ، ووقفت كما طلب مني مساء ذلك اليوم وأنا أعتقد بعد تقليب كل الاحتمالات أنه يريد أن يزور الموقوفين في (النظارة) أو سجن القلعة ، ولم تمض إلا دقائق حتى وقفت إلى جانبي سيارته وهو في داخلها وأشار إليّ فركبت معه فإذا هو يفاجئني بقوله : محمد أفندي هل تعرف كباريهات البلد ؟ فأخذتني الدهشة فأنا لم أذهب معه قبل اليوم ولم ألتقه خارج قصر العدل ، وهو رجل معروف بحسن السيرة والاستقامة والجدّ في حياته ، ويعرفني ويثني على سلوكي ويعتمدني لأسرار العمل فكيف يريدني أن أرافقه اليوم إلى الكباريهات ؟ صحوت من ذهولي أو

شرودي على صوته يقول لي : لم تجبني يا محمد أفندي . قلت له : لا والله يا سيدي ، ولكني أعرف واحدة منها قرب جسر فكتوريا ، وهنا تدخل السائق فقال : أنا أعرفها يا سيدي وأعرف غيرها . فتبسّم الرجل وقال له : حسناً خذنا إلى الأولى ، والتفت إلي قائلاً : اسمع يا محمد أفندي سندخل اليوم أنا وأنت إلى الكباريهات واحدة واحدة وننظر في الزبائن هل نرى بينهم أحداً من قضاتنا ؟ إننا لا نقبل لمن يعمل قاضياً في النهار أن يكون من زبائن الكباريهات في الليل . حياة الليل في الكباريهات لا يقوم بنفقتها راتب القاضي فيضطر إلى الانحراف ، نريد أن نبعد روّاد الكباريهات عن أقواس القضاء لتبقى للقاضي عدالته ، ومن لا يعدل مع نفسه لا يعدل مع غيره !

رئيس جمهورية

تلك كانت حكايات دمشقية وعيتها ، وعرفت أصحابها وجالستهم وتحدثت إليهم ، وعرفت أحداثها وحضرت بعضها ، نقلتها بما قدرت عليه من

دقة وأمانة . وأنا ذاكر بعدها حادثتين أو حكايتين أخريين عرفت أشخاصهما وجلست معهما ، ولكني لم أحضر الحادثتين وإنما أرويهما عن صديقين صادقين عدلين نقلا إليّ ما شهداه وأنا أنقله كما سمعته :

كنت في زيارة صديق لي فحضر قريب له ، وبعد أن رحّب به قال له : يا فلان حدّثنا بقصة عمك مع الشيخ تاج فإن ضيفي يحب أن يسمعها منك . قال الرجل : كان عمّي معلماً في مدرسة ابتدائية ، وكان فقيراً لا يملك غير راتبه ، وكانت وزارة المعارف تنشر في كل سنة جدولين أحدهما التبشيري لمن يستحق الترفيع في نهاية السنة ، وثانيهما لمن سيحال على التقاعد لبلوغه سن الستين ، ولمّا نشر الجدول في إحدى السنوات كان اسم عمي بين أسماء الذين سيحالون على التقاعد فأسرع إلى الوزارة يرجو حذف اسمه أو تأجيله وتمديد خدمته سنة أخرى لأنه لا مورد له غير راتبه ، ورفضت الوزارة طلبه ، فراح يتردّد عليهم كل يوم مكرّراً طلبه ورجاءه حتى أعجزهم فأفهموه أن الأمر ليس في أيديهم وأنّهم لا

يملكون تجاوز القانون فعاد إلى بيته يائساً حزيناً وبقي أياماً يفكر وقد قلّ كلامه وقلّ طعامه وكثر تدخينه ، وخافت عليه زوجته فقالت له : يا أبا فلان ألم تقل لي يوماً إن رئيس الجمهورية كان تلميذك ؟ فقال لها : بلى لقد علّمته سنة كاملة في الصف الثاني أو الثالث ، فقالت له : اذهب إليه وارجُه أن يساعدك فلعلّه يتذكّرك !

نهض الرجل في اليوم الثاني مبكراً وركب (الترام) ووصل إلى القصر الجمهوري في آخر حيّ المهاجرين ، واستأذن في الدخول فسمح له ، وقدّم نفسه للرئيس فعرفه وأحسن السلام عليه ، وبادر عمّي فعرض موضوعه وقدّم معروضه فأخذه الرئيس وكتب عليه موافقته على تمديد خدمته سنة أخرى فشكره وهمّ بالانصراف ولكن الرئيس أعطاه حين سلّم عليه علبة دخان (بافرة) فأخذها وانصرف خجلاً من أن الرئيس ما زال يذكر أن أستاذه يدخّن !

ولم يكد عمي يتجاوز باب القصر الخارجي حتى وقف على الرصيف يريد أن يدخن ، وأخرج العلبة

التي أخذها من الرئيس وفتحها فإذا هي خالية من السجائر وفيها ورقة لُفَّت على ليرتين ذهبيتين فظن أن الرئيس أخطأ فأعطاه علبة بدل أخرى وعاد مسرعاً يستأذن ثانية ولم يكد يدخل حتى بادره الرئيس : خير يا أستاذ ؟ فاعتذر وقال : يا سيدي ، أطال الله عمرك ، لقد أعطيتني علبة بدل علبة ، فهذه ليست علبة دخان . ضحك الرئيس وقال : لم أخطئ ففي العلبة ليرتان ، ولكن هل تعرف لمَ كانتا ليرتين ؟ قال : لا والله يا سيدي لا أعرف . فقال الرئيس : لقد أهملت واجبي في أحد الأيام ولم أكتب لك الوظيفة ، وأخرجت الطلاب الذين لم يكتبوا لتعاقبهم وكنت أنا بينهم ، وكنت تضرب كلاً منهم عصا واحدة ، فلما جاء دوري قلت لك : يا أستاذ أنا ابن الشيخ بدر الدين الحسني ، فقلت لي : أنت ابن الشيخ بدر الدين ؟ إذاً افتح يدك فعقوبتك مضاعفة وضربتني ضربتين وقلت لي : ابن الشيخ بدر الدين يجب أن يكون قدوة ، ومن ذلك اليوم لم أعد أهمل واجبي ، إنني أعطيتك على كل عصا ليرة ، وجزاك الله خيراً . خجل عمّي خجلاً شديداً وفرح بالليرتين

وتمنّى لو كان زاد الضربات . . وأسرع إلى الوزارة لرفع اسمه من جدول المحالين على التقاعد . رحم الله عمّي ورحم تلميذه .

رئيس آخر

حدثني نقيب سابق للمحامين ، كان صديقاً لي ، عشت معه في دمشق ، ودرّست معه في الجامعة اللبنانية ببيروت ، وشاركته في أعمال فكرية كثيرة ، قال : اتصل بي رئيس الوزراء بعد ظهر أحد الأيام وقال هيّء نفسك للذهاب معنا ففخامة الرئيس يريد أن يذهب إلى الغوطة ، ولم تكن تلك أول مرة ولا أول دعوة ، ذهبت معهما ووصلنا إلى (بالا) واستقبلنا الوكيل المسؤول عن الأرض ، فسلّم على الرئيسين ثم وقف بعيداً ، وأخذ الرئيسان يتمشيان جيئة وذهاباً ، وأيديهما وراء ظهورهما ، يتحدثان عن السياسة وعن البلد وأحواله ، وأنا إلى جانبهما أسمع ولا أتكلّم . وجاء الوكيل بعد قليل بكؤوس الشاي . وسأله الرئيس عن وضع الأرض وأحوالها فحدّثه عمّا سأل ثم قال له : الفلاح أبو

محمد يريد أن يترك العمل ، فسأله عن السبب فقال : لا أعرف . واستدعي الفلاح ليسلّم على الرئيس فحضر وسلّم ، ولمّا سأله الرئيس : هل صحيح أنك تريد تركنا يا أبا محمد ؟ قال : نعم يا سيدي ، أي والله صحيح . قال له : هل أزعجك أحد أو ضايقك ؟ قال : لا يا سيدي . قال : هل تريد شيئاً لنحقّقه لك ؟ قال : لا والله يا سيدي خيركم علينا كافٍ . قال الرئيس : إذاً لماذا تريد ترك العمل عندنا ؟ فقال الفلاح : سيدي أنا (ماني) حرّ ؟ أنا لا أريد العمل عندكم . قال له لماذا ؟ فقال : (هيك)!! سكت الرئيس لحظة ثم التفت إلى الوكيل وقال له : خذ أبا محمد الآن وأعطه حسابه ، وسدّد له كل ماله عندنا ، وأعطه مؤونة تكفيه شهراً هو وعياله ريثما يجد عملاً .

وعاد الوكيل والفلاّح بعد أقلّ من ساعة فسأل الرئيس الفلاح : هل أخذت كامل حقك ؟ قال : نعم كثّر الله خيركم . سأله : هل بقي لك شيء في ذمتنا ؟ قال : أبداً يا سيدي ، ثم سأله : هل أخذت المونة (المؤونة) ؟ قال : نعم والله يا سيدي ،

فضّلتم علينا . فختم الرئيس كلامه قائلاً : طيّب يا أبا محمد ، سامحنا ، والله معك .

قال محدّثي بعد انتهاء حكايته : والله يا أبا زاهر كنت أقف مشدوهاً !! هل هذا رئيس جمهورية صاحب أعلى سلطة في البلاد ؟ وإلى جانبه رئيس الوزراء حاكم البلد ؟ وهل يعرف الفلاح كيف يقول للرئيس : أنا حرّ ما (بدّي) أعمل عندكم . ولماذا ؟ (هيك)!! ويكون جواب الرئيس : الله معك ، سامحنا .

رحم الله الجميع فقد مضوا إلى رحمة ربهم وبقيت ذكراهم الطيّبة وذكرى أعمالهم الصالحة وأخلاقهم النبيلة الفاضلة .

المرأة

لم تكن النسوان أقلّ نبلاً من الرجال في ذلك المجتمع النبيل ، ولكن المرأة غالباً ما كانت تستر عملها وبذلها ونبلها كما تستر جمالها . لقد عرفت من النساء مَن كانت توصل الرسائل إلى المجاهدين والثوار في أحلك الظروف وأخطرها .

وعرفت منهن من جاءت إلى مبنى البلدية القديم

في ساحة الشهداء (المرجة) حيث كنت أجمع التبرعات لنصرة الثورة الجزائرية ، وقالت : سألتك بالله هل تصل هذه التبرعات إلى الجزائريين ؟ وكان إلى جانبي في تلك الساعة الأستاذ محمد الغسيري ممثل جبهة التحرير الجزائرية ، فقلت لها : هذا الشيخ محمد الغسيري من الثوار المجاهدين أنفسهم وسيوصل كل ذلك إليهم إن شاء الله . ففكّت المرأة صرّة في منديلها ودموعها ملء عينيها وهي تقول : « والله يا ابني لا أملك غير هذه الإسوارة ، خذها إليهم ، وأنا ربّك ما بينساني » فأبكت جميع الحاضرين .

وعرفت امرأة كانت تملك صندوقاً فيه ما تحتاج إليه المرأة لزينتها من حليّ وخواتم وأساور وأطواق وأقراط ، وهي كلّها من الذهب الخالص الغالي الثمن ، جعلته وقفاً عندها تعيره لمن تطلبه لتتزيّن به ليلة فرحها ، وقد ترسله مع ابنها إلى من لا تعرف من الأسر التي تطلب استعارته . وما بلغني من أحدٍ من أسرتها أنها افتقدت شيئاً منه على كثرة ما أعارته !

وأما اجتماع النسوة في بيت واحدة منهن ، يأتين لمساعدتها في أمر ولادة أو وليمة عند زوجها أو صنع محلي العيد أو لغير ذلك مما تدعو الضرورة إلى المساعدة فيه ، فهو أمر شائع معروف في جميع أحياء دمشق ، تقوم كل منهن بالعمل مع جارتها وكأنها في بيتها دون تكلّف ولا تصنّع ولا منّة .

لقد عرفت امرأة يدعونها (أم عبدو) كانت أمّاً للحارة كلّها ، وبكلّ من فيها ، لا يتردّد أحد في طلب مساعدتها إذا احتاج إلى مساعدة ، ولا تتردّد هي في الاستجابة لطلبه ولا تتأخر . عرفت (أم عبدو) أن جارتها سترافق زوجها المريض إلى بيروت للاستشفاء ولكنها لا تدري ماذا تصنع بولديها الصغيرين ؟ وأين تتركهما ؟ فأسرعت أم عبدو لتعرض على جارتها أن تترك الأولاد عندها أو تتركها عندهم إلى أن يعود الأبوان بالسلامة . . وبقيت ترعاهما رعاية الأم الحنون حتى عاد الوالدان بعد يومين .

وعرفت تلك المرأة الصالحة التي فتحت باب

بيتها لثلاثة من الثوّار يلاحقهم جنديان فرنسيان حتى إذا دخل الثوار بيتها أغلقت الباب وأرشدتهم إلى السلّم ليصعدوا إلى سطح الدار حيث يختبئون في (العليّة) ، ولمّا طرق الجنود الباب فتحته بهدوء وقلب بارد . . سُئلت عن الرجال فقالت إنها امرأة وحيدة في البيت وأن زوجها في عمله وليس عندها أحد ، وهدّدتهم إن اقتحموا الدار أن تصرخ و(تولول) مستغيثة بأهل الحارة فتركوها وانصرفوا ، وأرسلت مع ابن الجيران إلى زوجها أن يحضر معه غداء لأن أهلها فاجؤوها بالزيارة . . ولما حضر الزوج أخبرته وطلبت إليه أن يصعد للغداء مع المجاهدين ! قال لها : ألم تخافي من الرجال الغرباء تدخلينهم إلى البيت وأنت وحدك ؟ فقالت : وكيف أخاف ممن يقدّم نفسه ودمه ثمناً لوطنه ودفاعاً عن أعراض أبنائه ؟!

سقى الله ذلك الزمان ، ورحم الله تلك الأجيال وأولئك الأقوام ما كان أصدق صداقتهم ، وأوفى عهودهم ، وأنقى قلوبهم ، وأطهر نفوسهم . لقد ذكّرتني علاقات الناس اليوم وما كانت عليه في تلك

الأيام بكلمة للأصمعي قال فيها : « لقد أدركت أقواماً لا يلقى الواحد منهم صاحبه في الشهر مرّة ، فإذا رآه اكتفى بالسلام والسؤال عن حاله ، ولو سأل أحدهم صاحبه شطر ماله لأعطاه . وأرى اليوم أقواماً لو لقي أحدهم صاحبه كلَّ يومٍ لأخذه بالعناق والتقبيل ولسأله عن أهله ، وعن الكبير والصغير ، وعن دجاجاته وأحوالها ، ولو سأل أحدهم صاحبه ديناراً لمنعه » !!

رحم الله الأصمعي ، فلقد رأيت بين الجيلين في الشام وغيرها ما رآه بين الجيلين في زمانه .

وختاماً ، فتلك قصص دمشقية تعطي كل منها درساً في الأخلاق الاجتماعية والسلوك الإنساني ، وتذكّرنا بما كان أهلنا يتّصفون به أو يتخلَّقون به ويعيشون فيه من حبّ وتكافل وقيم نبيلة فاضلة . ربما كان مظهر بعضهم لا يعجبنا أو لا يرضي ذوقنا ولكنهم دون شك كانوا يعجبوننا بنقاء سرائرهم وصفاء قلوبهم ، وليتنا نحن اليوم نحرص على نظافة باطننا ونفوسنا وقلوبنا من البغي والحقد والحسد كما نحرص على نظافة وجوهنا وثيابنا! ليتنا نُنظِّف خُلُقَنا

كما نُنَظِّف خَلْقنا ، فالخَلق صورة الظاهر والخُلُق صورة الباطن .

اللهم كما جمَّلتَ دمشق طبيعةً فجمِّل أهلها طباعاً .

وكما جمَّلت علانيتنا فجمِّل سريرتنا .

واحفظ بلدنا وقومنا ووطننا واختم لنا بخاتمة الحسنى .

ولك الحمد في الأولى والآخرة .

جدة
٢٠١٥